فرانز كافكا

الأعمال الكاملة

ترجمة: د. يسري خميس



3

العربي للنشر والتوزيع

فرانز

كافكا

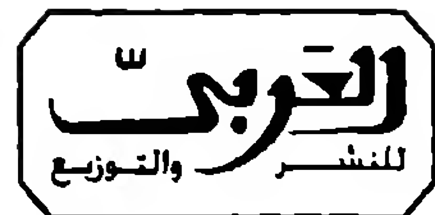
الأعمال الكاملة

3

الجزء الثالث

ترجمها عن الألمانية

د. يسري خميس



60 شارع القصر العيني - 11451 - القاهرة
(+202)27921943 - (+202)27954529 فاكس:(+202)27947566
sherifbakr@yahoo.com
www.alarabipublishing.com.eg

كافكا - الأعمال الكاملة

الجزء الثالث

فرانز كافكا

ترجمة: د. يسري خميس

الطبعة الأولى 2014

رقم الإيداع 2013/22420

ISBN 978-977-319-194-8

This book was published with support of the Embassy of the Czech Republic in Cairo.

بطاقة فهرسة

كافكا، فرانز، 1883 - 1924

الأعمال الكاملة/ كافكا، ترجمة يسري خميس.، ط1 - القاهرة:

العربي للنشر والتوزيع، 2013 ص؛ سم

تدمك 9789773191948

1- القصص الألمانية 2-الأدب الألماني: مجموعات

أ- يسري، خميس (مترجم) ب- العنوان 35,894

مقدمة المترجم

كافكا الذي لا نعرفه

من أخطر المزالق التي يمكن أن يقع فيها القاريء/الناقد هو الثبوت عند تصور معين لكاتب ما. هذا يعني، أن يضع الكاتب في إطار محدد لا يحيد أن يخرج عنه. وعلى وجه الخصوص الكاتب المبدع الكبير، الذي في حقيقة الأمر من الصعب بل من الخطأ كل الخطأ أن تضعه في كليشيه خاص، لا يمكنه أن يخرج من إطاره.

من الضروري أن يحاول نقاد الأدب تحديد المصطلح النقدي على مدى تطور المراحل الأدبية المختلفة، بدءاً من "الواقعية" بأنواعها المتعددة "الواقعية النقدية" و"الواقعية الاشتراكية" و"الواقعية السحرية" و"الواقعية الخيالية" ...الخ حتى الـميتافكشن (Metafiction) مروراً "بالطبيعية" و"الدادية" و"السوريالية" وذلك للتفرقة بين الأنواع، لكنه من الصعب، بل من المستحيل أن تفصل المدارس بهذه الحدة داخل الأعمال الأدبية العظيمة، بل تتداخل الطرائق والأساليب في نسيج العمل الأدبي، كما تتداخل التناقضات في الحياة نفسها.

ولقد تعرف القارىء العربي على الكاتب الألماني (المجري/ التشيكي الجنسية) المتفرد ككل الكتاب العظام أول الأمر على رواياته: «القلعة»، «المحاكمة»، «التحول»، «أمريكا». ولقد أذهل النقاد أول عمل أدبي كبير كتبه كافكا «الحكم» (Das Urteil) سنة 1912 في نفس واحد في ليلة واحدة.

يعتبر فرانز كافكا Franz Kafka (1883 - 1924) أحد رواد الحداثة الأوائل في عالم الإبداع الأدبي في القرن العشرين، وهو معروف في عالمنا العربي ككاتب روائي شديد الخصوصية في رؤيته الحادة العصابية المتوترة لخبرة الإنسان المرهقة في هذا العالم وقد وصف عالمه الأدبي بأنه "كابوسي" و"عصابيّ" وأن كافكا يستحق لقب "رائد الكتابة الكابوسية" "عجائبي" "غرائبي"

تبدو أعماله كما وصفها أحد الكتاب إحساس عالٍ وعميق بالمرارة والظلمة، ففي روايته «المسخ» يقدم رؤية قاتمة للإنسان، يصحو الموظف المبتئس بوظيفته وأرهقه ضغط احتياجات أسرته، حيث يعول والديه وأخته. يصحو ليجد نفسه يعامل كحشرة كبيرة تشبه الخنفساء، ويتحول من مصدر احتفاء إلى مصدر إزعاج. وتتنفس الأسرة الصعداء حين تموت تلك "الحشرة"، وكأنما الذي يربط الإنسان بأسرته حاجة مادية إذا لم يستطع أن يحققها تخلت الأسرة عنه وحاربته كما تحارب أي حشرة ضارة.

وكاتب آخر يقول لقد تنبأ فرانز كافكا بحسه الرهيف والمذهل بجوهر العصر الرأسمالي في مرحلة انحطاطه وتفسخه، والذي نعيشه في هذه الفترة المسماة عصر العولمة، والنظام العالمي الجديد بقيادة الإمبريالية الأمريكية، حيث يتحول البشر تدريجياً إلى درجات أدنى من البهائم. فلو لقي «جريجور سامسا» (بطل القصة) نفسه فجأة حشرة في الظاهر، لكنه داخلياً كانت عملية الانمساخ بدأت منذ شعوره باليأس والإحباط، ومعاناته الاستلاب في ظل العلاقات اللا إنسانية للرأسمالية. فقليل من التأمل يضعنا أمام صورتنا الحقيقية، حقيقة أنه عبر نشاطنا، وأعمالنا، ونزهتنا، وتمضية أوقات فراغنا وظروف معيشتنا، كلها قد استحلنا نسخاً مكررة من «جريجور سامسا». وأن ماكينة الزمن قد أمست آلة استنساخ «جريجور سامسا»، بالملايين من النسخ التي ترعب ذاتها. وإن النهايات الفاجعة في أعمال كافكا غدت نهاياتنا جميعاً، ملخصة الحياة البائسة نفسها التي كان يعيشها «جريجور سامسا»، والتي نعيشها نحن. واليأس المحدق به، هو نفسه المحدق بنا اليوم. وأن سوداويته هي سوداويتنا. ومثلما كان يحمل الكثير من الحزن والوجع والآلام، فنحن أيضاً نحمل أكثر مما كان يحمل في ظل النظام العالمي الجديد. ونحن أيضاً مثل «جريجور سامسا»، معذبون، لكن لا ندع اليأس ينخر روحنا وعزيمتنا، ومثله كذلك بات الغضب الذي يولده القلق يطبع روحنا بطابعه.

لم ألاحظ قط فيما قرأت من أعماله - وهو ليس بالقليل وليس بالكثير الذي يمكنني من الحكم - أي انعكاس لديانته اليهودية فيها. في

نفس الوقت الذي أكد بعض النقاد المتعصبين على يهودية الرجل. وما يعنينا هنا - بالنسبة لنا نحن كعرب - أنه يجب التفرقة بوضوح بين اليهودية، كأحد الديانات السماوية الثلاث، وبين الصهيونية، التي هي في جوهرها وممارساتها حركة استعمارية، عنصرية، عسكرية، منحطة، يمثلها بوضوح الكيان الصهيوني المغتصب لأرض فلسطين بمساعدة دول الاستعمار التقليدية على رأسها انجلترا.

في بداية نجاح الثورة البلشفية 1917 بقيادة لينين العظيم ربط الفكر الماركسي التقليدي الأدب بشعاراته وتوجهاته للوصول إلى حكم الطبقة العاملة (دكتاتورية البروليتاريا) "يا عمال العالم اتحدوا!" حلم إنساني عظيم لشاعر فحل! مما أفرز بلا شك أعمالاً عظيمة في تلك المرحلة التاريخية، ومن هنا كانت أعمال كافكا بالمقياس الدعائي بعيدة كل البعد عن هذا التصور، بل لقد وصل الأمر بمطالبة الحزب الشيوعي الفرنسي حرق أعمال كافكا، وقام هتلر بالفعل بحرقها في حريق الكتب الشهير 1933 لكل من عارض النظام النازي. وباستقرار الوضع في الاتحاد السوفيتي، ابتدأ نقاد الأدب في إعادة النظر في هذا الموقف ذي البعد الواحد، وكان أن كتب روجيه جارودي Roger Garaudy أحد أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الفرنسي في كتابه (واقعية بلا ضفاف) أعاد النظر في أعمال كافكا، وكشف لنا الرؤية الإنسانية العريضة والعميقة في أعماله، وجوهره ككاتب إنساني، يكتب عن عذابات الإنسان ومعاناته ضد القهر والظلم والرعب من واقع ظالم متحيز. كافكا الذي يرى أنه: "على الكاتب أن يكون الفأس التي تكسر ما في داخلنا من جليد" وهكذا كسر

جارودي جليد الجمود الفكري، الذي يحول الفكر الماركسي إلي دوجما Dogma مقدسة، مما يتعارض في جوهره مع ديالكتيك الفكر الماركسي وديناميكيته التي لا توقف مع صيرورة التاريخ، مما كان سبباً في فصله من اللجنة المركزية للحزب، واتهامه بالتحريفية.

رغم أن الأعمال الكاملة لفرانز كافكا قد ترجمت في العالم العربي، ترجمها كل من إبراهيم وطفي في سوريا و الدسوقي فهمي في مصر في العقود الأخيرة منذ الستينيات، كما ترجمت له أعمال متفرقة في مصر، إلا أنها لم تقابل وقتها من أغلب الأدباء المصريين بالحماس الذي تستحقه. و إن كان قد ازداد الاهتمام بها في السنوات الأخيرة، وسط المناخ الاجتماعي العبثي شديد التناقض والتسيب العام واللامنطق، حيث وجد فيها الأدباء علاقة موازية - بدرجة أو بأخرى - مع ما يدور حولنا ويشوه حياتنا ويفسدها، فذكرهم بعالم كافكا الإنساني العميق. ستظل أعمال كافكا تثير الكثير من الإشكاليات والتساؤلات والاستفهامات، إلا أنها كتابات عبقرية كان لها أثرها في عدد كبير من الأدباء في أرجاء العالم مثل خورخي لويس بورخس، وجابريل جارثيا ماركيز الذي يقول: "أثبت لي كافكا، أنه يمكن الكتابة بطريقة أخرى"، وميلان كونديرا حيث يقول: "لقد أثبت لي كافكا، أنه يمكن تجاوز الاحتمالات، ليس على طريقة الرومانتيكيين، للهروب من العالم الواقعي، بل من أجل أن نفهمه بشكل أفضل" والروائي الأمريكي فيليب روث، ورولفو بكالفينو ومورا كامي، والشاعر الياس كانيتي الذي يقول: "كافكا شاعر عظيم، انه أهمّ من عبّر بوضوح عن قرننا العشرين"

وقد ترجمت للعربية العديد من أعمال هؤلاء الكتاب في السنوات الأخيرة، مما لفت نظر أدباءنا لإعادة اكتشاف فرانز كافكا.

يختلف النقاد بالنسبة لكل عمل أدبي عظيم، الذي يصعب تصنيفه تحت مدرسة أدبية معينة، وهذا ما يرغب فيه النقاد دائماً من ضرورة تحديد المصطلح. فالأدب العظيم يستحيل تصنيفه في إطار معين، فهو كخبرة فنية يحتوي على اتجاهات مختلفة متداخلة ورؤى متعددة، وإنني أرى هذه المحاولة بالنسبة للقارىء ليست ضرورية على الإطلاق، بل يمكن أن تكون ضارة، فهي تربك العلاقة بين النص والقارىء وتحد من انطلاق خياله في عملية التلقي.

إن الأثر الذي تركه كافكا قد اتخذ طابعاً كونياً شمل رقاعاً متباعدة ثقافياً ولغوياً وجغرافياً وفي هذا تفسير وتبرير لمقولة إن كافكا هو صاحب الظل الأطول بين كتاب القرن العشرين، وصدق أحد النقاد حين قال: "إن كتابات كافكا هي ضربة فأس ضد البحر المتجمد فينا" وهي مقولة مشتقة من كافكا نفسه "الكاتب يجب أن يكون الفأس التي تكسر بحر الجليد فينا".

د.يسري خميس

يونيو 2011

فرانز كافكا[1]

طه حسين

مر بهذا العالم مرًّا سريعًا، فلم يعش فيه إلا أربعين عامًا، أنفق جزءًا غير قليل منها في الطفولة والصبا، مُتأثرًا بما حوله غير مؤثر فيه، مُتلقيًا ما ينحدر إليه من أبويه اللذين مَنحاه الحياة، وما يُقدم إليه أبواه أثناء التربية من ألوان التصور للأشياء، والتقدير لها، والحكم عليها، والوقوف أمامها، قابلًا حينًا ورافضًا حينًا آخر، مُتلقيًا كذلك ما تقدم إليه بيئته الخاصة التي تحيط به وبأسرته في مدينة براج، في أواخر القرن الماضي، من ألوان الحضارة وفنون الحياة التي كانت الطبقة الوسطى تحياها في ذلك الوقت.

ثم أنفق بعض هذا الأمد طالبًا في المدارس الثانوية ثم في الجامعة، مندفعًا بميله الأول إلى العلم، ثم مُتَحَوِّلًا عن العلم التجريبي إلى الفقه والقانون، حتى إذا أتم دراسته التمس عملًا يكسب منه القوت، ليظفر بشيءٍ من الحياة المُستقلة، فوجد هذا العمل في شركة من شركات التأمين.

وهو في أثناء ذلك يَتَكَلَّفُ أسفارًا قَصيرة في وطنه وفي ألمانيا وسويسرا، وإيطاليا وفرنسا .ثم لا يكاد القرن العشرون يتقدم قليلًا، حتى يقضي عليه الموت سنة ١٩٢٤ وقد وُلِد ١٨٨٣ فحياته العاملة الظاهرة كما ترى

[1] فصل كتبه طه حسين عن كافكا في كتابه ألوان (بتصرف).

قصيرة جدًّا، بسيطة جدًّا، ليس فيها عوج ولا التواء، وليس فيها تكلف ولا تعقيد، ومع ذلك فلم يعرف التاريخ الأدبي كثيرًا من الأدباء تعقدت حياتهم النفسية، والتوت بهم طرق الإحساس والشعور والتفكير، كهذا الأديب، والذين يدرسون حياته النفسية هذه في آثاره الكثيرة يَرُدُّون تعقيدها إلى طائفة من المؤثرات، قريبة في نفسها، ولكنها بعيدة أشدَّ البُعْدِ فيما نشأ عنها من ضروب الشعور والتفكير.

فقد كان أديبنا من أسرة يَهودية تعمل في التجارة، مُتَأَثِّرة أشد التأثر، وأيسره في الوقت نفسه، بالتقاليد اليهودية المتوارثة، في شرق أوروبا ووسطها؛ فهي مُحافظة أشد المحافظة على هذه التقاليد السطحية التي يحافظ عليها اليهود، وهي في الوقت نفسه مُتهاونة أشد التهاون في حقائق الدين ودقائقه، ترى أنها قد أدت الواجب على وجهه إذا اختلفت إلى المعبد في أوقات معلومة، فسمعت ما يسمع الناس، وقالت ما يقولون، وأتت من الحركات والأعمال ما يأتون، دون أن يتجاوز شيء من هذا كله أطراف اللسان وأعضاء الجسم، إلى دخائل النفوس وأعماق القلوب فدينُها ظاهر من الأمر، كدين

غيرها من عامة الناس، صور وأشكال لا تمس الضمير، ولا تؤثر في السيرة اليومية، ولا توجه الحياة الداخلية والخارجية إلى وجه دون وجه، وإنَّما الحياةُ الداخلية والخارجية مُوَجَّهتان دائمًا بما وجه حياة الناس، على اختلاف أديانهم وعقائدهم.

من هذه الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي تدفع النَّاس إلى العناية بمنافعهم القريبة العاجلة، أكثر من العناية بحقائق الدين ودقائقه، وبتعمق الحياة وما يكون فيها من الأحداث، وما يُمكن أنْ يكون لها من الأغراض العُليا والغايات البعيدة.

ولذلك لم يلبث أديبُنا أن ضاق بهذه الحياة الدينية الظاهرة المتكلفة، التي تقوم على النفاق أكثر مما تقوم على الإيمان؛ فجحد دينَ الأسرة والشعب اليهودي أولًا، ثم جحد الدين نفسه بحقائقه ودقائقه بعد ذلك، وأقام حائرًا لا يستطيع أن يعود إلى دين آبائه؛ لأن عقله لا يطمئن إلى هذا الدين، ولا يستطيع أن يستغني عن حياة دينية صادقة تعمر القلب، وتملأ الضمير ثقة واطمئنانًا؛ فهو يُنكر من جهة أشد الإنكار، ويسعى من جهة أخرى أشد السعي، إلى أنْ يَجِد ما يؤمن به قلبه، وترتاح نفسه إليه.

وهذه المحنة القاسية التي امتُحن بها في إيمانه، قد نشأت عنها مِحْنة أخرى ليست أقلَّ منها قسوة وعنفًا، وليست أيسر منها تأثيرًا في حياته الدَّاخلية؛ فقد امتُحن أديبُنا في الصلة بينه وبين أبيه، أنكر سيرة أبيه في الدين؛ لأنه لم يرَ فيها صدقًا ولا إخلاصًا، ثم أنكر سيرة أبيه في الأسرة؛ لأنه رآها تقوم على التسلط والاستطالة وعلى القوة والقهر أكثر مما تقوم على الرَّحمة والحُبِّ وعلى البر والعطف والحنان، ثم أنكر سيرة أبيه في تدبير منافعه التجارية المُختلفة؛ لأنه رآها تقوم على الحرص والأثرة وانتهاز الفرص، أكثر مما تقوم على القصد والعدل والإنصاف،

فنظر إلى أبيه على أنه طاغية مُخيف، ولم يستطع أن ينظر إليه إلا على هذا النحو، وأقام الصلة بينه وبين أبيه على الإشفاق والخوف، ثم

على المُصَانعة والمُدَاراة، ولم يستطع أن يُقيمها على شيء آخر من هذا التعاطف الرقيق الرفيق الذي يكون بين الأبناء والآباء.

فهو إذن مُنكِر للدينِ وسُلطانه، وهو في الوقتِ نفسِه ضيِّق بالأبوة وسلطانها، وهو لا يلبَثُ أن يوحِّد بين هذين النوعين اللذين يُنْكِرُهما من السلطان :سلطان الدين، وسلطان الأبوة .فيقف منهما موقفًا قوامه القلق والفزع والهول، وهو يَشْقى بهذا المَوقف حياته كلها، قد حاول ما وسعته المُحاولة، أن يَخلص من الشك إلى الثقة، ومن الخوف إلى الأمن، فلم يجد إلى ذلك سبيلًا.

ثم تنشأ من مِحنته في الدِّين وفي الصلة بينه وبين أسرته، محنة أخرى ليست أقل منهما قسوة ولا تعقيدًا، وهي المِحْنَةُ التي تمس حقه في أنْ يَحيا حياة الآباء، فيتخذ الزوج ويمنح الوجود للولد، كما اتخذ أبوه الزوج وكما منحه ومنح إخوته الوجود، فهو يشعر بأنه مدين لأبيه بوجوده، لا يشك في ذلك، ولا يشك في أن الدَّيْنَ يجب أن يُؤدى، ولا يشك في أن الوسيلة الوحيدة إلى أن يُؤدي الابن ما عليه لأبيه من الدَّيْن إنما أن يمنح الوجود الذي تلقاه من أبيه لأبناء يتلقونه منه ويمنحونه بعد ذلك لأبنائهم، فإذا اتخذ الزوج ورُزق الولد، فليس عليه لأبيه دَينٌ .هو يؤمن بهذا كله، ولكنه في الوقت نفسه يقف من هذه القضية موقفًا يُشبه موقف أبي العلاء في البيت المشهور:

ذلك أنه يرى الحياة التي تلقاها من أبيه شرًّا لا خيرًا؛ لأنَّها لم تمنحه رضا القلب، ولا هدوء النفس، ولا راحة الضمير، ولا هذه الثقة البَاسمة التي تنشأ عنها كل هذه الخصال، هو مَدينٌ لأبيه بالوُجود، وما في ذلك شَكٌّ، وليس أحب إليه من أن يؤدي ما عليه من الدَّين، ولكن بشرط ألا يكون أداء الدين مصدرًا للشر، ولا سبيلًا إلى الأذى، وبِشرط ألا يجني على أبنائه، ما جنى عليه أبوه من هذا القلق المُتَّصل، والخوف المُلِح، واليأس المُقيم.

وإلى جانب هذه المِحَن الثَّلاث، في الدِّين والأبوة والزَّواج، تُضاف مِحْنَةٌ أخرى لَعَلَّها أن تكون هي التي أسبغت لونها القاتم على مِحَنِهِ الأُخَرَى كُلها، وهي مِحْنَة المرض، المرض الذي لا يظهر فجاءة ولا يثقل على المريض ثقلًا طويلًا، وإنما يداوره ويناوره، ويَسعى إليه سعيًا خفيًّا بطيئًا مُتلكئًا، يدنو منه لينأى عنه، ويُلمُّ به ليُفارقه، ويقفه من الحياة موقفًا غريبًا لا هو باليأس الخالص ولا هو بالأمل الخالص، وإنَّما هو شيء بين ذلك، يملأ القلب حسرة ولوعة، ويملأ النفس شقاءً وعناءً؛ حتى إذا استبان أنه قد نهك فريسته وكلفها من الجهد أقصاه ولم يبقَ فيها قدرة على المقاومة، أنشب فيها أظفاره، وصب عليها آلامًا ثقالًا وأهوالًا طوالًا، ثم قضى عليها الموت في ساعة من ساعات الليل أو من ساعات النهار.

فأنت ترى أن أديبنا عليلٌ قد ألحت عليه العِلَّة، وأن علته معقدة أشد التعقيد، بعضها يتصل بالدين، وقد عجز أطباء اللاهوت عن علاجه؛ فهو قد قرأ التوراة وتعمق دراسة التلمود، ودرس المسيحية ودرس فلسفة الفلاسفة المُؤمنين والمُلحِدين، فلم يَجِد لِعِلَّته الدينية هذه طبًّا ولا شفاءً.

وبعضها يتصل بالوراثة والصلة بين الابن وأبويه، فهو إلى علم النفس التحليلي أقرب منه إلى أي شيء آخر، وقد عجز علم النفس التحليلي عن علاجه، فلم يستطع أحد ولم يستطع شيء أنْ يُصلح رأيه في أبيه، أو يُصلح العِلاقة بينه وبين أبيه، وإنما ظَلَّ طول حَيَاتِهِ واقفًا من أبيه مَوقف الطفل الخائف المروع الذي يرى تفوق أبيه وتسلطه، ويُحاول أن يخلص من سلطانه فلا يستطيع، ويحاول أن يحبه وأن يظفر منه بالحب فلا يستطيع.

وبعضها يتصل برأيه في الحياة، وموقفه منها، ورغبته في أن يحياها كما تعوَّد الناسُ أن يحيوها، وخوفه مع ذلك من العجز عن احتمال أثقالها، وخوفه بنوع خاص من أن يحمِّل هذه الأثقال قومًا آخرين أبرياء، لم يجنوا ما يستحقون من أجله احتمال الأثقال، وهم الزوج والولد.

وبعضُ عِلَّتِهِ جِسمي يتصل بالفسيولوجيا، وقد عجز الأطباء عن عِلاجه؛ فما زالَ السل يداوره ويناوئه حتى قضى عليه آخر الأمر.

فإذا قدَّرنا هذه المحن كلها، وقدَّرنا أنها لم تُصَبَّ على رجل عادي، وإنما صُبَّت على رجل ممتاز له من القلوب أذكاها، ومن العقول

أصفاها، ومن الأذواق أرقها، ومن المشاعر أدقها، ومن الحس أشده إرهافًا، وله بعد ذلك إرادة حازمة صارمة، وقُدرة مُدهشة على الملاحظة، وعلى مُلاحظة نفسه أكثر من ملاحظة غيره من الناس، وبراعة خارقة للعادة في أن يجعل نفسه موضوعًا للدرس والبحث والتحليل، وأن يكون هو الدارس الباحث المحلل، وأن يسجل ما ينتهي إليه درسه وبحثه وتحليله، في آثار مكتوبة طوال وقصار، أقول :إذا قدرنا هذا كله، لم نر غريبًا أن يكون أديبُنا هذا بهذه المنزلة التي شغلت الناس، ويظهر أنها ستشغلهم وقتًا طويلًا.

ورُبما كان أخص ما يمتاز به فرانز كفكا أشد الامتياز، أنه كان أصدق الناس لهجة، وأشدهم إخلاصًا، وأبغضهم للتكلف، وأبعدهم عن التصنع، وأعظمهم حظًّا من التواضع الذي يأتي من معرفة الإنسان قدر نفسه بعد الدرس المُتَّصل والاستقصاء العميق، وهو من أجل ذلك كان يكتب لنفسه أكثر مما كان يكتب للناس؛ فقد كان من أشد الناس زهدًا في نشر آثاره وأعظمهم إخفاءً لها وضنًّا، لا لأنه كان يُكْبِرُها أو يُغالي بها، بل لأنَّه كان يَزْدَرِيها كما كان يزدري نفسه.

وقد نُشِر قليل من آثاره أثناء حياته في المجلات، ولم يُنشَر في أكثر الأحيان إلا على كره منه، كان صديقه ماكس برود يختطف هذه الآثار اختطافًا، ويدفعه إلى نشرها دفعًا، فلما أدركه الموت وقرئت وصيته، تبين أنه قد اختار صديقه هذا — ماكس برود —وصيًّا، وأنَّه يطلب إليه أن يحرق آثاره كلها، وألا ينشر منها في الناس شيئًا.

وقد وقف الوصي من هذه الوصية موقِف الحيرة التي لم تتصل، فشكَّ غيرَ طويل ثم خالف عن أمر صديقه، وأخذ في نشر آثاره مُلْتَمِسًا لذلك ما شاء من العِلَل والمَعَاذير.

وقد مات فرانز كفكا سَنة ١٩٢٤ ، ولم تمضِ على وفاته أعوام حتى كانت آثاره بعيدة الانتشار في ألمانيا، بل في أوروبا الوسطى كلها، ثم تجاوزت حدود أوروبا الوسطى إلى أوروبا الغربية، فتلقاها الفرنسيون لقاءً غريبًا.

ورُبَّما كان من طرائف الأشياء، أن آثار فرانز كافكا كانت تُستقبل أحسن استقبال في غرب أوروبا؛ ويُنكَّل بها أبشع تنكيل في أوروبا الوسطى؛ فكان الفرنسيون والإنجليز يترجمونها ويفسرونها، على حين كان الألمانيون الهتلريون يَحرقونها جهرة في الميادين.

وقد يكون من الخير أن نُلاحظ، قبل أن نتحدث عن آثار فرانز كافكا أن ظروف الحياة الأوروبية كانت ملائمة كل الملاءمة لظهور هذه الآثار؛ فقد بدأ كافكا يَشْعُر ويُفَكِّر قُبيل الحرب العالمية الأولى، فكان كل شيء من حوله يؤذن بالكارثة، ويدفع إلى البؤس واليأس.

ثم مضى في تفكيره وإنتاجه أثناء الحرب العالمية الأولى، فكان في تلاحق الكوارث والفواجع من حوله ما يزيد إمعانه في البْؤس واليأس، ثم نَظَر ذات يوم فإذا كل شيء من حوله ينهار؛ فإمبراطورية النمسا والمجر تتفرق أيدي سبا، والإمبراطورية الألمانية العظيمة تلقي السلاح

وتركع مُتلقية شروط المنتصر، فلا يزيده هذا كله إلا إيغالًا في البؤس واليأس، ثم يمضي في تفكيره وإنتاجه وقد تم الصلح.

ولم تلبث الإنسانية بعد إمضائه أن استشعرت خيبة الأمل وكذب الظن، فلم يتحقق العدل الذي قيل إنَّ الحرب أثيرت لتحقيقه، وإنما عادت الإنسانية بعد الحرب، كما كانت قبل الحرب، بائسة يائسة، مُتَخَبِّطة لا تدري إلى أي وجه تتجه، ولا في أي طريق تسير.

حياة خاصة كُلها نُكر وشر، وحياة عامة كلها بؤس ويأس؛ فأي غرابة في أنْ يَكون الأدب الذي ينتجه فرانز كافكا في هذه الظروف كلها هو الأدب الأسود بأدق معاني هذه الكلمة وأشدها سوادًا وحلوكًا؟!

وواضح جدًّا أنَّ هذا القلب الذكي ذا الحس المرهف والشعور الدقيق، لم يصور الحياة كما رآها من حوله فحسب، وإنَّما صور هذه الحياة، وصور آثارها القريبة؛ فكان في أدبه هذا المُظلم، شيء من التنبؤ المُزعج، بما ستتعرض له الإنسانية من الكوارث والأخطار.

وكان من أجل هذا بَغيضًا إلى الذين كانوا يُريدون أن يُعيدوا الحرب جَذَعة، مُثيرًا للشوق وحب الاستطلاع عند الذين كانوا يَخافون الحرب ويُشفقون من أن يُدفَعُوا إليها كارهين.

ومن أجل هذا كانت آثار فرانز كافكا في وقت واحد تُترجَم في باريس، وتُحرَق في برلين، والآثار الأدبية التي تركها فرانز كفكا كثيرة منوعة، لم تُنشَر كلها بعد، وإنما نُشِر أكثرها، وأظهر ما تمتاز به من

الخصائص أنها تُصَوِّر القلق الذي يُوشك أن يبلغ اليأس، وتصور الغموض الذي يضطرُ القارئ إلى حيرة لا تنقضي، ويدفعه إلى كثير من المذاهب في فهم هذه الآثار وتأويلها، وحل ما تشتمل عليه من الألغاز والرموز، فقد كان فرانز كفكا أشد الناس صراحة وأعظمهم إخلاصًا في حياته اليومية، وفيما كان ينشأ من الصلات بينه وبين أصدقائه وذوي معرفته، وفيما كان يُسجل لنفسه من الخواطر

والمذكرات في يومياته المتصلة، ولكنه بعد هذا كله كان أبعد الناس عن الصراحة وأنآهم عن الوضوح، فيما كان ينتج من القصص الطوال والقصار.

وليس المُهِمُّ أنْ نلتمس العِلَل المُختلفة لهذا الغُموض؛ فالأدب الرَّمزي في نفسه ظاهرة سائغة طبيعية، ليست في حاجة إلى أنْ تُلتمس لها العِلل والمَعاذير، وإنَّما هي أثرٌ من آثار بَعض الأَمْزِجة، ولونٌ مِنْ ألوان الفَنِّ، في كثير منَ الآداب القديمة والحديثة، على اختلاف البيئات والعصور.

فقل بعد ذلك إن فرانز كافكا قد أمعن في درس التلمود، وتعمق ما في آداب إسرائيل من الأسرار والألغاز، وتأثر بهذا كله في فنه؛ فهذا حقٌّ من غيرِ شَكٍّ، ولكنه ليس كل شيء، فما أكثر الأدباء الرمزيين الذين يَسْتَمِدُّون رمزيتهم من مزاجهم الفني وحده، لا من دراسة التلمود، ولا من تعمق الأسرار والألغاز في أدب إسرائيل!

والغموض في أدب فرانز كافكا من نوع خاص؛ فالرجل المثقف حين يقرأ هذا الأثر أو ذاك من آثاره، لا يشعر بالغموض لأول وهلة،

وإنَّما يُخَيَّل إليه أنه يقرأ شيئًا يَسيرًا سائغًا قريبَ الفهم، لا يَتَكَلَّف في تذوقه جهدًا ولا عناءً، ولكنه لا يلبث أن يحس شيئًا من الغرابة، أو قُل شيئًا من الغرابة في هذا الذي يقرأ؛ لأنَّه يرى أشياء مُسرفة في البَسَاطة مَألوفة أشَدَّ الإلف، ليس مِن شَأْنِها أن ترتفع إلى حيث تكون أدبًا ينتجه الفن الرَّفيع، وإنَّما هي من هذه الأشياء التي يَراها الإنسان في كل يوم وفي كل مكان، وفي الطبقات الساذجة العادية من الناس؛ فيسأل القارئ نفسه، أو قُل يقنع القارئ نفسه، بأن الكاتب

لم يُرد إلى هذه البسائط، وإنما اتخذها وسائل قريبة لغايات بعيدة.

وهنا يُدفَع القارئ إلى التماس هذه الغايات، فيذهب في التماسها كل مذهب، ويسلك إلى استكشافها كل سبيل، وقد يصل إلى شيء يحسبه الغاية التي قصد إليها الكاتب، ولكنه لا يكاد يُفَكِّر ويروِّي، حتى يشك فيما انتهى إليه، وحتى يسأل نفسه ألا يُمكن أن يكون الكاتِبُ قد أراد إلى غاية أخرى أو إلى غايات أُخَر، غير هذه التي انتهى هو إليها؟

وكذلك تستطيع أن تقول :إنَّ قارئ فرانز كفكا، مُعَلَّق دائمًا، يُخَيَّل إليه أنَّه يفهم ما يقرأ، وهو يفهم معانيه القريبة من غير شك، ولكنه يَشْعُر شعورًا قويًا بأنَّ هذا الذي يفهمه ليس هو الذي قصد الكاتب إليه. وإلى جانب هذا الشعور بالتعليق المتصل يجد القارئ أثناء قراءته حرجًا مُرهقًا وضِيقًا شديدًا؛ لأنه يرى نفسه في بيئة مهما تكن قريبة في ظاهر الأمر فهي غريبة في حقائق الأشياء، وهو من أجل ذلك لا يُحس

يُسرًا ولا سُهولة ولا سِعة، وإنما هو يَشعر بضِيق الصدر وقلق النس، وهذا الجهد العنيف الذي يفرض على العقل.

فقارئ فرانز كافكا في الدنيا وليس فيها، هو في عالم غريب، لاهو بالواقعي ولا هو بالوهمي، وإنَّما هو شيء بين الواقع والوهم يملأ النفس حيرة وشوقًا وسأمًا وإلحاحًا في وقت واحد.

تأخذ في قراءة القِصَّة فيفجؤك قُربها وتدهشك غرابتها، وأنت لا تكاد تطمئن إلى هذا القرب اليسير المألوف، ولو قد اطمأننت إليه لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب، ورأيت أنك لست في حاجة إلى تكلف الجهد لتفهم ما لا يحتاج إلى فهم، وأنت لا تَطمئن إلى هذه الغَرابة، ولو قد اطمأننت إليها لتركت القصة وأعرضت عن الكتاب يائسًا من القدرة على الفهم، ضنينًا بوقتك وجهدك على إنفاقهما فيما ليس إلى فهمه سبيل .فأنت إذن مُعَلَّق بين الوضوح الذي يملأ نفسك سأمًا، وبين الغُموض الذي يملأ نفسك شوقًا، وما تزال في هذه الحال المُعلقة منذ تبدأ الكتاب أو القصة إلى أن تفرغ منهما.

وأغرب من ذلك أنك حين تفرغ من القراءة، لا تنتهي إلى ما يحسن الاطمئنان إليه والسكوت عليه، وإنَّما أنت مُعَلق بعد الفراغ من القراءة، كما كانت معلقًا في أولها وفي وسطها، ذلك لأنَّ الكاتب لا يُتِمُّ قصته وإنما يقتضبها اقتضابًا، وينتهي بها إلى شيء لا يصلح أن يكون غاية لقصة أو كتاب.

ومصدر ذلك في أكبر الظن أنَّ الكاتب نفسه لا يعرف لنفسه غاية يقف عندها أو أمدًا ينتهي إليه، وإنَّما هو يمضي بقصته في طريقها ما وَسِعَه المُضِيُّ، حتى إذا أدركه الإعياء أو انتهى إلى بعض الطريق، وجد أمَامَه سدًّا مَنيعًا لا يَستَطيع أن يتجاوزه، فوقف حيث ينتهي به السعي، واستأنف السير في طريق أخرى، وانتهى من هذه الطريق الأخرى إلى مثل ما انتهى إليه في الطريق الأولى، فوقف ثم استأنف السير في طريق ثالثة.

فأنتَ ترى إلى الآن أنَّ أدب فرانز كافكا يَقُوم، أو قد يَدور حول هذه الأصول الثلاثة: وهي العجز عن الاتصال بالإله من جهة، والعجز عن فهم الخطيئة والتبرؤ منها مع الثقة بالتورط فيها من جهة ثانية، والعجز عن فهم العلل الغائية لما يكون في العالم من الخطوب والأحداث من جهة ثالثة.

وأنتَ إذا قرأت هذه الآثار الكثيرة التي نُشرت لفرانز كفكا على اختلافها في الطول والقصر، وتفاوتها في الوضوح والغموض، رأيتها كلها تدور حول هذه الأصول، وقد يُلِحُّ هذا الأثر أو ذاك في تجلية هذا الأصل أو ذاك، ولكنَّ مَجموعتها تنتهي بك دائمًا إلى هذه الخُلَاصَة القاتمة السلبية، التي تجعل حياة الإنسان كلها عجزًا وقصورًا ويأسًا أو شيئًا قريبًا جدًّا من اليأس.

ومن أجل هذا وُصِف أدب فرانز كافكا كما وُصِف أدب أبي العلاء بأنه أدب قاتم حالك، يفل العزائم ويثبط الهمم، ويصد الإنسان عن العمل ويرده عن الأمل، ويدفعه إلى نشاط عقلي عقيم، يدور حول نَفْسه

أكثر مِمَّا يدور حول غيره، ولا يُحَفِّز الناس إلى طمع أو طُموح، وإنَّما يُمْسِكهم في لون من الخوف المُنكر، الذي لا أمن معه ولا اطمئنان.

ومن أجل هذا حُرِقت كتب كفكا في برلين أثناء الحكم الهتلري، ومن أجل هذا أيضًا كان اليَساريون في فرنسا يبغضون هذه الكتب أشدَّ البُغض، ويودون لو يُحال بينها وبين الشباب، ويُعبرون عن هذا كله بهذه الجملة التي كثر حولها الحديث في فرنسا أثناء الصيف الماضي: "يجب أن يُحرَق فرانز كافكا"

وواضح جدًّا أنَّ هذه العبارة ليست إلا رمزًا؛ فتحريق الكتب لا يغني شيئًا، ويكفي أن تحرق الكتب ليزداد انتشارها، إنما المهم هو أن هذا الأدب القاتم مُتبط لهمم الشباب، فلا ينبغي أن يُخَلَّى بينه وبين الشباب.

طه حسين

1

حلم مستمر

كانت تسير في الشارع، لم أرها، لاحظت فقط، كيف تهتز في مشيتها، كيف يتطاير شالها، كيف ترفع قدمها، كنت أجلس على حافة الحقل أبحلق في الماء المنساب في الجدول الصغير، وهي تتنقل بين القرى، بينما يقف الصبية على الأبواب، يشاهدونها ويراقبونها وهي تبتعد.

2

شعار المدينة

في البداية كانت عملية بناء برج بابل على أحسن ما يرام، بل ربما أكثر مما كان متوقعاً، فقد روعيت كل التفاصيل وبدقة، علامات إرشاد الطرق، مرشدون سياحيون، مساكن للعمال، طرق المواصلات، كان هناك مئات من فرص العمل. كان الرأي الغالب هو، أنه لا يمكن استمرار العمل بهذا الإيقاع البطيء، فقبل كل شيء يجب وضع الأساس. كان تبرير ذلك هو: أن الشيء الأساسي في المشروع كله هو الفكرة، بناء برج يصل إلى السماء ويناطحها. مقابل هذه الفكرة، تصير كل الأشياء الأخرى ثانوية. فعندما تفكر في عظمة الفكرة وتستوعبها، تتأكد أنها لا يمكن أن تختفي أو تندثر، فطالما هناك بشر، ستظل تلك الرغبة القوية في بناء هذا البرج قائمة. أما بالنسبة للمستقبل، فيجب ألا يساورك القلق، على العكس، فمعارف الإنسانية في تقدم مستمر، وفن البناء في تقدم مستمر هو الآخر، وسيظل يتقدم باطراد خطوة خطوة، فالعمل الذي كان يتطلب عاماً بأكمله لكي ينجز، سوف ينجز في نصف هذا الوقت بعد مائة عام، بل وبشكل أفضل ومستوى أعلى. لماذا إذن نبذل اليوم أقصى جهد ممكن؟ يكون لذلك معنى، لو أننا توقعنا أن بناء

البرج سينجز في إطار جيل واحد. هذا لا يتوقعه أحد. الاحتمال الأكبر، هو أن الجيل التالي بمعارفه الجديدة، سوف يرى أن عمل الجيل السابق عليه عملاً رديئاً، ويقوم بهدم البرج، ويبدأ في بناءه من جديد. مثل تلك الأفكار تثبط من همة العمل في المشروع، وبدلاً من الاستمرار في بناء البرج، يتحول الاهتمام لبناء مدينة للعمال. كل صاحب أرض يريد أن يبني منزله في أجمل الأحياء، وتبدأ النزاعات، وتتصاعد، وتزداد شراسة، وتصل إلي الاقتتال وسفك الدماء. وتستمر النزاعات ولا تتوقف، وقد وصلت قيادات هذه النزاعات إلي منطق جديد: من الضروري أن يعمل على تهدئة إيقاع بناء البرج، فهو يحتاج لتركيز من نوع خاص، وربما من الأفضل أن يؤجل المشروع برمته لأجل غير مسمى، إلي أن تسوّى النزاعات وتعقد اتفاقية سلام شامل. بالطبع لم يستهلك الوقت كله في النزاعات، ففي فترات الهدنة كانوا يقومون بتجميل المدينة، الشيء الذي أثار الحقد في نفوس بعضهم البعض، وابتدأت دورة جديدة من النزاعات. هكذا مر زمن الجيل الأول، كما أن الأجيال التالية لم تكن مختلفة عن هذا الجيل، فقط تقدم فن البناء، وتصاعد باستمرار، وتصاعدت معه الرغبة في النزاعات. إلى أن اكتشف الجيل الثاني أو الثالث أن بناء البرج لا معنى له أصلاً، كما أن الارتحال من المدينة لا ضرورة له، فقد ارتبط أهل المدينة ببعضهم البعض أكثر فأكثر.

كان كل ما أبدعته تلك المدينة من أمثال وأغان، يعبر عن حلم واحد ينتظره الجميع، أن يأتي يوم تدك فيه مدينتهم تلك وتندثر، بضربات متواصلة من قبضة هائلة جبارة. لذلك، اختاروا قبضة اليد شعاراً للمدينة.

3

بوسايدون (إله البحر)

يجلس إله البحر بوسايدون أمام مكتبه ويقوم بعمليات حسابية. تقارير عديدة من مختلف إدارات المياه. كان يمكنه أن يستعين بمساعدين كما يشاء، فعنده الكثير من المساعدين. ولأنه يمارس وظيفته بجدية زائدة، فهو يقوم دائماً بدراسة ومراجعة جميع التقارير والحسابات بنفسه، ونادراً ما يحتاج لمساعديه. لا يمكن القول أن عمله يبهجه، فهو ببساطة يقوم به لأنه مكلف به، فلقد حاول أكثر من مرة البحث عن عمل آخر أكثر بهجة كما يقول، بل لقد قدم بالفعل طلبات عدة للبحث عن عمل جديد، لكنه رفض وظائف عديدة أكثر من مرة، فقد كانت لا تروق له مثل وظيفته الحالية. لم يكن سهلاً أن تجد له وظيفة أخرى. فقد كان من المستحيل أن تحدد له بحراً بعينه، بصرف النظر عن أن الحسابات هناك ليست أقل، فلا يمكن لبوسايدون العظيم إلا أن يشغل وظيفة قيادية. ولو أنك عرضت عليه عملاً بعيداً عن المياه، فمجرد الاقتراح يصيبه بالغثيان، يضطرب تنفسه الإلهي، ويهتز قفصه الصدري. حقيقة، علينا ألا نأخذ شكواه علي محمل الجد، فعندما يتذمر عظيم، علينا أن نتراجع في مثل هذه الظروف التي لا حل لها، لمجرد أن

يفكر أحد في أن بوسايدون يمكن أن يترك موقعه. منذ البدء، كان محدداً له أن يكون إله البحر، ويجب أن يظل في مكانه.

أكثر ما يثير غيظه – وهذا ضمن الأسباب الأساسية لعدم رضاه عن وظيفته – عندما يسمع ما يقال عنه، من أنه لا يكف عن التجوال بعربته وسط الأمواج ماسكاً شوكته الثلاثية. حتى أثناء جولته تلك، يجلس في قاع بحار العالم ويقوم بلا توقف بعملياته الحسابية، باستثناء تلك الرحلة التي يقوم بها في فترات متقطعة لزيارة يوبيتر، بهدف كسر الملل، رحلة يعود منها غالباً وهو في حالة حنق شديد. فهو لا يكاد يرى البحار والمحيطات إلا بشكل خاطف، وهو في طريق صعوده المتعجل للأوليمب، في حقيقة الأمر لم يقم بوسايدون باجتيازها مرة واحدة. إنه يقول دائماً، أنه ينتظر حتى تأتي نهاية العالم، سوف تكون هناك لحظة هدوء بكل تأكيد، يراجع فيها آخر فاتورة بالكاد قبل النهاية، و يتمكن فيها من أن يقوم بجولة سريعة في البحار والمحيطات.

4

خبطة على بوابة السّراى

في يوم حار من أيام الصيف، مررت أنا وأختي ونحن في طريقنا للمنزل على السراى. لست أدري، لماذا خبطت أختي على البوابة، على سبيل الشقاوة أو ربما دون أن تقصد أو أنها لوّحت فقط بقبضتها في الهواء ولم تخبط البوابة. بعد حوالى مائة متر من الشارع المنعطف على الشمال توجد القرية. لم نكن نعرف هذه القرية من قبل، لكن بمجرد اقترابنا من أول منزل، توافد كثير من أهل القرية وهم يشيروا بأيديهم مرحّبين أو محذرين. أشاروا على السراى الذي مررنا عليه في الطريق وهم مذعورين، ولفتوا نظرنا الى الخبطة على بوابة السراى. سوف يرفع مالك السراى دعوى ضدنا، وسوف يبدأ التحقيق على الفور. كنت هادئا تماما، وعملت على تهدئة أختي. أغلب الظن أنها لم تقم بالخبط على بوابة السراى على الاطلاق، ولو أنها فعلت، فلا يمكن تقديم أى دليل على ذلك. حاولت أن أوضح ذلك لأهل القرية من حولنا، استمعوا إليّ باخلاص، لكنهم لم يقولوا رأيا ولم يصدروا حكما. قالوا أنها ليست أختي وحدها هى المتهمة، بل أنني أيضا متهم بصفتي أخوها. هززت رأسي مبتسماً.

التفت الجميع برؤوسهم ناحية بوابة السراى، وشاهدوا سحابة من الدخان قادمة في انتظار ظهور اللهب. على الفور، شاهدنا جمعا من الفرسان على ظهور الخيول وهم يدخلون من بوابة السراى. تصاعد التراب وغلف المشهد كله ما عدا أسنة الرماح وهي تلمع متلألئة. ما أن دخل الفرسان من بوابة السراى، حتى أداروا الخيول وعادوا ثانية في طريقهم تجاهنا. نصحت أختي بالابتعاد، ورجوتها أن تتركني أعالج الموقف وحدي. تلكأت ورفضت أن تتركني. أخبرتها أنه يجب عليها على الأقل أن تبدل ملابسها حتى تظهر أمام السادة الفرسان برداء مناسب. اقتنعت وتحركت في الطريق الطويل إلى المنزل. وصل الفرسان الينا، وسألوني عن أختي وهم على ظهور الخيل، أجبت بهدوء أنها حاليا ليست موجودة هنا، لكنها ستعود بعد فترة قصيرة. لم يلق الفرسان بالا لاجابتي، فقد كان واضحاً أنهم يريدونني أنا شخصياً.

كانا شخصين اثنين، القاضي، شاب ملئ بالحيوية ومساعده الصامت، المعروف باسم الرجل المساعد. أمرت بأن أدخل الى حانة القرية، أحنيت رأسي ودخلت ببطء، شددت حمالة البنطال وجلست في الردهة في مواجهة النظرات الحادة للرجلين. كنت متيقنا، أن كلمة واحدة مني، أنا ابن المدينة، تكفي لكى تحررني من هذا الجمع من القرويين. ولكن ما أن تجاوزت عتبة الحانة، حتى قال القاضى الذى كان منتظرا إياى وهو يقفز واقفاً "هذا الرجل حالته تدعو للأسف والرثاء". كان لا يقصد حالتي الراهنة بلا شك، بل ما سوف يحدث لي

بعد ذلك. كانت الحانة تبدو كزنزانه في سجن اقرب منها الى حانة في قرية. حيطانها من أحجار ضخمة سوداء جرداء، في مكان ما بأحد الحيطان ثبتت حلقة معدنية، في وسط الحانة طاولة خشبية تبدو كما لو أنها طاولة عمليات جراحية. هل سيمكنني أن أتنفس هواء أقل لزوجة من هواء هذا السجن؟ هذا هو السؤال الجوهري، الذي يمكنني أن أطرحه في حالة ما سيكون هناك أمل في الافراج.

5

الهجـــين

أمتلك حيواناً فريداً من نوعه، نصفه قط ونصفه الآخر حَمَل. ورثته عن أبي. صار هكذا بعد ملازمته لي فترة طويلة، قبلها كان حَمَلا أكثر منه قط. والآن أصبحا متساويين. من القط كان له الرأس والمخالب، ومن الحمل حجمه وهيئته، أما العينان فهما من الاثنين، ترتعشان بحذر وخوف و لهما في نفس الوقت نظرات شرسة. الصوف ناعم وقليل، حركته تقترب من القفز أكثر من التسلل البطيء. تحت أشعة الشمس، يرقد ويقرقر على حافة النافذة، على الحشائش، يقفز برشاقة وحيوية يستحيل معها الإمساك به. انه يهرب من القطط، ويهاجم الحملان الأخرى. في الليالي القمرية، يفضل المشي على المزراب فوق سطح البيت. انه لا يموء، ويشمئز كثيراً من الفئران. يرقد بجوار مزرعة الدجاج ساعات طوال، دون أن يفكر في افتراس إحداها.

أطعمه باللبن المسكر الذي يشتهيه، فهو يشربه بتلذذ واضح في رشفات بطيئة ممطوطة. أما بالنسبة للأطفال، فهو فرجة عظيمة مدهشة بالطبع. يأتون إليه وقت الزيارة -- صباح كل يوم أحد. أضع الحيوان الصغير في حجري، بينما يلتف حواليّ كل أطفال الجيران.

تسمع أروع الأسئلة، التي لا يمكن لأحد أن يجيب عليها: لماذا يوجد أصلا مثل هذا المخلوق؟ هل وجد حيوان بهذا الشكل من قبل؟ ولماذا أمتلكه أنا بالذات؟ وكيف سيصبح حالي بعد موته؟ هل سأشعر عندئذ بالوحدة؟ لماذا ليس له أولاد؟ وما اسمه؟ وهكذا

حقيقة، لا أهتم بالإجابة على تلك الأسئلة، لكنني أكتفي بأن أفرجهم على ما أمتلكه. أحياناً، يحضر الأطفال ومعهم بعض القطط، بل لقد أحضروا ذات مرة حَمَلين اثنين. وحدث ما لم يتوقعوه، مما أزعجهم كثيراً وأصابهم بالحزن -- فلم يهتم مطلقاً أحد الحيوانات بالآخر. بحلق كل حيوان في عين الآخر بهدوء، ليس أكثر، متقبلين هذا المخلوق كمعجزة ربانية.

وطالما ذلك الحيوان في حجري فهو يشعر تماماً بالاطمئنان والرضا ولا يود الاستمتاع بلعبة المطاردة. يشعر بالسعادة عندما يتمسح بي. انه فرد من العائلة، ينتمي بالفعل للعائلة التي نشأ وسطها. هذا ليس بإخلاص غير عادي، لكنها الغريزة الطبيعية لحيوان يرجع تاريخه لأسلاف عديدة، لكنه ربما لا يمت بصلة لأي منهم، مما يجعل وجوده في بيتنا حماية مقدسة له.

أحياناً، أضحك بصوت عال وأقهقه عندما يتشممني وينحشر بين ساقيّ ويصعب عليّ أن أبعده. كما لو أنه لا يكتفي بأن يكون قطاً وحَمَلاً، بل يودّ أن يكون كلبا في نفس الوقت. ذات مرة، كنت مزدحماً بالعمل لدرجة زائدة، ورأيت أنه ليس هناك من مخرج لأنهي كل ذلك، فتركت كل شيء كما هو، وعدت للبيت وألقيت نفسي مسترخياً في الكرسي الهزاز -- فجاء الحيوان وقفز إليّ ورقد على حجري، و بينما كنت أربت عليه وأراقبه، وجدت قطرات

سائلة تتساقط من شعر ذقنه، كانت دموعاً!! ترى هل كانت دموعي أم دموعه؟ هل تمتلك هذه القطة التي لها روح حَمَل الطموح الإنساني كذلك؟

لم أرث الكثير عن أبي، لكن هذه القطعة هي أغلى ما ورثته عنه.

نوع ما من القلق يسيطر عليه، قلق مركب مزدوج، قلق القط وقلق الحَمَل رغم اختلافهما الشديد. لذلك فإن جلده يضيق عليه -- أحيانا يقفز على المقعد بجواري ويضع ذراعه على كتفي، يقترب بفمه من أذني، كما لو أنه يقول لي شيئاً ما، ينحني بعدها برأسه للأمام وينظر في عينيّ، حتى يري رد فعلي على ما قاله. أتظاهر بودّ أنني فهمت ما يقصد، وأهز رأسي بالموافقة -- عندئذ يقفز فرحاً على الأرض بحيوية شديدة ويتراقص هنا وهناك وهو في حالة ابتهاج زائد.

ربما كانت سكين الجزار هي الخلاص الوحيد بالنسبة لهذا الحيوان، الشيء الذي لا أوافق عليه. لذلك يجب عليه الانتظار حتى النفس الأخير.



6

الجســــر

كنت متصلباً وبارداً، كنت جسراً، مشدوداً على هوّة واسعة. قدماى من ناحية ويداي من الناحية الأخرى مخرومتين ومثبتتين في الحافة، أتشبث بهما في طين هش. على جانبيّ ترفرف ملابسي. في العمق تصطخب مياه الجدول بأسماكه. لا يمرّ أحد، ولو على سبيل الخطأ، بهذا المكان المرتفع الوعر، كما أن الجسر لم يكن مثبتاً بعد في خريطة دليل المنطقة. وهكذا ظللت راقداً أنتظر، لم يكن أمامي سوى أن أنتظر. لا يمكن لجسر أن يتوقف بأن يكون جسراً، إلا إذا تحطم وانهار.

في أحد أمسية الصيف، بينما كانت أفكاري مشوشة - للمرة الأولي أو للمرة الألف لا أدري - ومياه الجدول تصطخب بقوة تحتي، سمعت صوت خطوات إنسان تقترب!! تتجه ناحيتي! نحوي!! تماسك أيها الجسر، شدّ نفسك، استعدّ، استقيمي أيتها الكتل الخشبية التي لا سور لها، قومي بمهمتك! كانت خطواته غير واثقة متأرجحة مهتزة، رآني، فتدحرج مرة واحدة على الأرض ككتلة ضخمة صمّاء.

نهض وخبط عليّ بسن عصاه المعدنية المدببة ورفع بها ملابسي وعدّلها. أدخل سن العصا في شعري الكث وتركها لفترة طويلة، ثم تلفت حوله ودون مقدمات، قفز بقدميه وسط جسدي، وأنا أتابعه في صعوده وهبوطه. ارتجفت من شدة الألم الوحشيّ، دون أن أعرف من كان ذلك الرجل؟ هل كان شاباً؟ هل كان حلماً؟ قاطع طريق؟ شخص يودّ الانتحار؟ مغامر؟ مخرّب؟ استدرت حتى أراه - جسر يستدير!!! ما أن استدرت، حتى سقطت مرة واحدة، تهاويت، انهرت تماماً، وانغرست فيّ حواف الحصى الحادة القاطعة، التي كانت تنظر إليّ من قبل بودّ شديد وسط مياه الجدول الجارية.

7

النسـر

هناك نسر ينهش في قدميّ. ها هو قد مزّق الحذاء، ثم مزّق الجوارب. والآن ينهش في لحم قدميّ بالفعل. ينهش بعنف، يطير مندفعاً لأعلى، يحوّم حولي عدة مرات، ثم يعاود العمل ثانية. مرّ بنا رجل، تأمل ما يحدث، وسألني لماذا أصبر على هذا النسر وأتحمله. قلت له أنه "لا حول لي ولا قوة"، "لقد أتى وابتدأ في النهش، وددت لوأنني أبعدته، بل لقد حاولت بالفعل أن أخنقه، لكنني اكتشفت أن حيوانا كهذا قوي بالفعل، فلقد حاول أن يقفز في وجهي، ساعتها فضّلت أن أضحّي بقدميّ. والآن تمزقتا كلية" "تترك نفسك تتألم وتتعذب هكذا" قال الرجل "طلقة واحدة وينتهي الأمر رددت قائلاً: "هكذا؟ وبهذه السهولة؟ وهل ستحضرلي الطلقة؟" "بكل سرور أجاب الرجل، "يجب عليّ فقط، أن أذهب للمنزل وأحضر السلاح، هل يمكنك التحمّل لنصف ساعة أخرى؟" أجبت: "حقيقة، لا أدري" حدقت لبرهة من شدة الألم والمعاناة وقلت له "أرجوك أن تحاول ذلك، تحت أى ظرف" "سأسرع قدر ما يمكنني" قال الرجل. كان النسر ينصت في هدوء لحديثي مع الرجل، ويتنقل بنظراته بيني وبينه. لاحظت أنه فهم كل ما

قد قيل، ارتفع طائراً في الجوّ، تراجع للخلف مسافة طويلة، اندفع بقوة عنيفة تجاهي، وغرز منقاره في فمي كرمح، غرزه داخلي وبعمق. حقيقة، شعرت بتحررما عندما عاود فعل ذلك، ورأيت كيف غرق في أعمق أعماقي الطافية بالدماء التي تفيض على كل الشواطئ، وقلت أنه هالك لا محالة.

8

الفــــــرار

أمرت السائس بأن يحضر إلى حصاني من الإسطبل. لم يفهمني السائس. دخلت بنفسي إلى الإسطبل، وضعت السرج على الحصان وامتطيته. سمعت صوت بوق آت من بعيد، سألته ماذا يعني ذلك. لم يجب، كما أنه لم يسمع شيئاً. استوقفني عند البوابة وسألني: إلى أين اتجاهك أيها الفارس؟ أجبته: "أنا لا أعرف بالضبط. بعيداً عن هنا. فقط بعيداً عن هنا. دائماً بعيداً عن هنا. و باستمرار. هكذا فقط، يمكنني أن أصل إلى هدفي "سألني: "واضح أنك تعرف هدفك جيداً" أجبته: "نعم. أعرف هدفي جيداً، سبق وأن أخبرتك به توّا. بعيداً عن هنا - هذا هو هدفي"

9

إصرف نظر عن الموضوع!

في الصباح الباكر، والشوارع خالية ونظيفة، وأنا في طريقي لمحطة القطار. نظرت إلى ساعة البرج وضاهيتها بساعتي، اكتشفت أن الوقت قد تأخر كثيراً عما ظننت، عليّ أن أسرع، انزعجت كثيراً من هذه الحقيقة، التي أربكتني وجعلتني غير واثق من الطريق، فأنا بعد لم أتعرف جيداً على هذه المدينة، لحسن الحظ، كان هناك شرطي بالقرب مني، فاندفعت تجاهه وسألته لاهثاً أن يدلني على الطريق. سألني مبتسماً: "تريد مني أنا، أن أدلك على الطريق؟" قلت له "نعم، فأنا لا يمكنني أن أستدل عليه بنفسي" رد عليّ قائلاً: "أنت تضيع وقتك! اصرف نظر عن الموضوع!" أجابني وراح بعيداً وهو يقهقه.

10

في الليـــل

غارق في الليل. ينكس المرء رأسه، حتى يمكنه التفكير، غارق مستغرق في الليل. مستغرق تماماً. حولك من كل ناحية ينام البشر. تمثيلية صغيرة، وهم ذاتي بريء يعيشونه، ينامون في منازلهم، على سرر متينة، تحت أسقف متينة، ممدّدين أو مقرفصين على المراتب، علي ملاءات، تحت أغطية، وجدوا أنفسهم مثلما كانوا ذات يوم من قبل، ومثلما كانوا بعدها، في أمكنة مهجورة، معتقل في الهواء الطلق، عدد هائل من البشر، جيش بأكمله، شعب، ألقي به تحت سماء باردة على أرض باردة، مثلما حدث ذات يوم من قبل، الجبهة مسنودة على الذراع، والوجه ملتصق بالأرض، يتنفس بهدوء، وأنت مستيقظ تماماً، أنت أحد الحراس. تعثر على الآخرين، وأنت تقلب الخشب المحترق وسط كومة القش. لماذا أنت مستيقظاً؟ يجب أن يقوم أحد بالحراسة. يجب أن يكون هناك أحد.

11

الـــربّـان

ألست أنا ربّان السفينة؟ قلت صائحاً. "أنت؟" تسائل رجل أسود ضخم الجثة، وفرك عينيه بيديه، كما لو أنه يبعد حلما ما. كنت ممسكاً بالدفة في ليلة مظلمة، فوق رأسي يهتز ضوء الفانوس الشاحب، والآن يأتي ذلك الرجل يريد أن يبعدني وينحيني جانباً. لم أتحرك من مكاني، فما كان منه إلا أن وضع قدمه فوق صدري وضغط عليه ببطء، بينما كنت ممسكاً ومعلقاً بقضبان الدفة، وقعت، فانخلعت الدفة. عندئذ أمسك بها الرجل وأعادها إلي مكانها، ودفعني بعيداً. وعندما استرددت أنفاسي بسرعة، جريت إلى كوة السفينة التي تؤدي إلى قاعة البحارة وصحت: "يا رجال! يا رفاق! أسرعوا! لقد أبعدني رجل غريب عن دفة السفينة!" جاءوا متباطئين، صعدوا سلم السفينة مترنحين، أشباح قوية التكوين مجهدة. سألتهم:"ألست أنا الربان؟" فهزوا رؤوسهم، لكن نظراتهم جميعاً كانت في اتجاه الرجل الغريب، انتظموا حوله في نصف دائرة، قال بلهجة آمرة: "لا تزعجونني!" تجمعوا، هزوا رؤوسهم ناحيتي وانصرفوا في اتجاه سلم السفينة. أي شعب هذا؟ ألا يمكنهم التفكير؟ أم أنهم يسعون في الأرض بلا معني؟

12

الخذروف

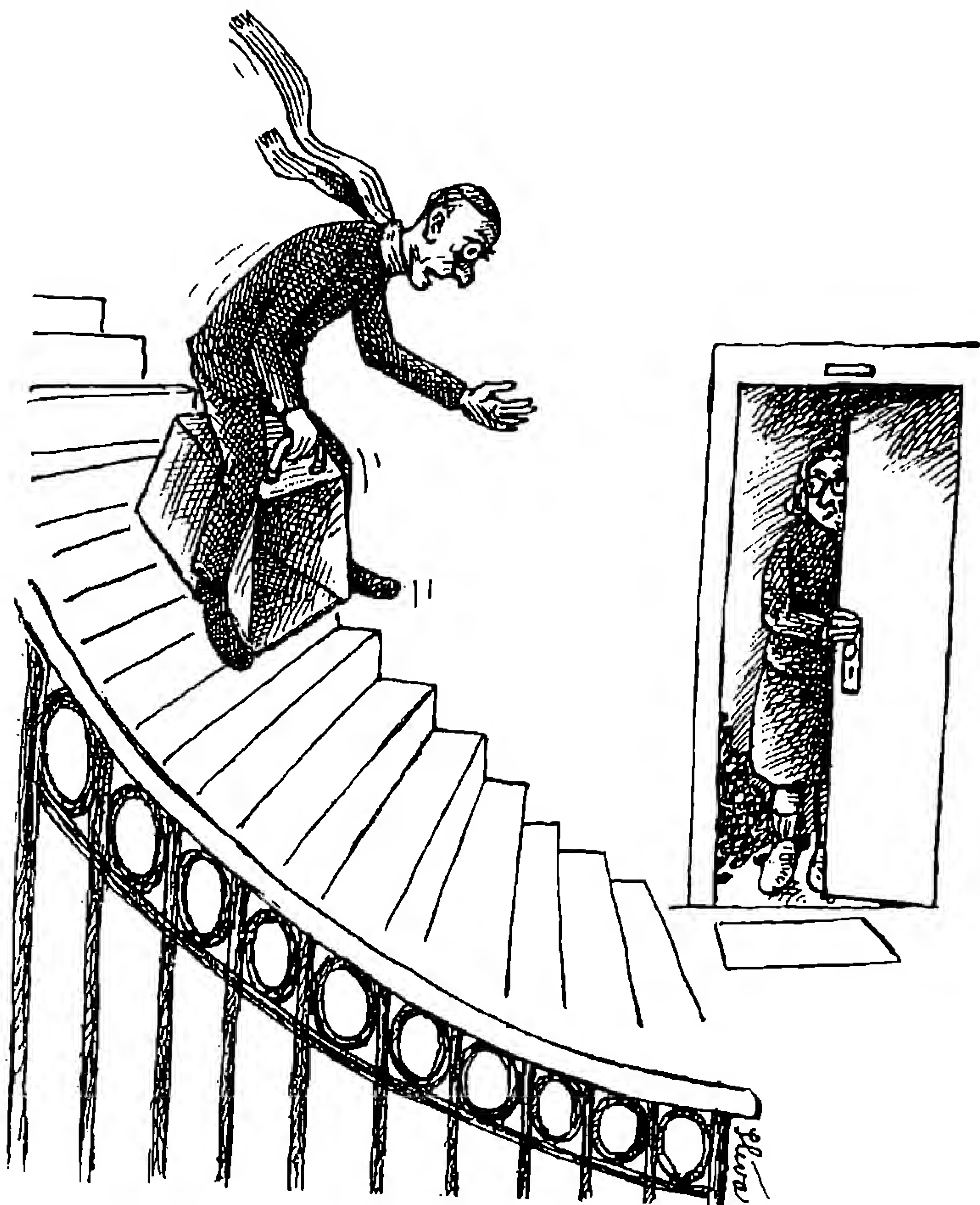
كان هناك فيلسوف يحب التجوّل دائماً حيثما يلعب الأولاد. رأى صبياً في يده خذروف فترصّد له. ما أن بدأ الخذروف في الدوران، إلا وأن تابعه الفيلسوف يريد الإمساك به. لم يلق بالاً لإعتراض الأطفال وصرخاتهم ومحاولتهم إبعاده عن لعبتهم، وأمسك بالخذروف أثناء دورانه، غمرته السعادة للحظة، ثم ألقى به على الأرض وانصرف.

كان مقتنعاً تماماً بأن معرفة جزئية صغيرة -- مثل خذروف يدور حول نفسه -- تكفي بأن تقود إلى المعرفة العامة. لذلك لم يشغل نفسه بالقضايا العامة، ففي ذلك هدر ما وتضييع وقت. فلو أنك عرفت بالفعل أصغر جزئية، سوف تعرف كل شيء، لذلك ركز اهتمامه فقط، بالخذروف الذي يدور حول نفسه. كان يأمل دائماً عندما يستعد لتدوير الخذروف أن تتحقق الأمنية ويدور الخذروف، فيتابعه لاهثاً بنفس متقطع، عندئذ يتحول الأمل إلى يقين، ويظل ممسكاً بقطعة الخشب البليدة، تزعجه وترن في أذنيه صرخات الصبية، التي لم يكن يسمعها من قبل، وتطرده بعيداً، حيث يترنح كخذروف يلسعه سوط بليد.

13

أقصوصة خرافية

"شيء مؤسف، فالعالم يزداد ضيقاً يوماً بعد يوم" قال الفأر "في البداية كان العالم واسعاً متسعاً لدرجة كانت تخيفني آنذاك، كنت أجري وأقفز وأتجول، وكنت سعيداً، أن أرى عن بعد هذه الحوائط على يميني وعلى يساري، لكن الآن، هذه الحوائط العالية الممتدة التي تنطبق بسرعة بعضها على بعض، وتحاصرني، وأجد نفسي الآن في الغرفة الأخيرة، حيث توجد في أحد أركانها المصيدة." "عليك فقط أن تغير اتجاه حركتك" قال القط وافترسه.



14

راكب الجردل

استهلكت كل ما لدي من فحم، فرغ الجردل حتى آخره، الجاروف بلا معنى، الفرن يتنفس برودة، الغرفة يتراكم على جدرانها الصقيع، أمام النافذة تقف الأشجار متصلبة، السماء درع فضي، تصد به كل من يرغب في مساعدة منها. يجب أن أحصل على فحم، لا يصح أن أتجمد هنا من البرد، خلفي الفرن الذي لا يرحم، أمامي السماء التي لا ترحم هي أيضا، لذلك يجب عليّ أن أركب الجردل بسرعة، وأذهب لوسط المدينة أطلب العون من بائع الفحم. انه محصن ضد توسلاتي المتكررة، لكن يجب أن أقنعه هذه المرة، بأنني لا أملك قالب فحم واحد، وأنه يعني بالنسبة لي الشمس في السماء. يجب أن أكون كالمتسول الذي يقف على عتبة الباب، ويطلب شيئاً حتى لا يموت من الجوع، فتقرر طباخة السادة إعطاءه بقايا القهوة يسد بها رمقه. هكذا يجب على بائع الفحم، أمام إلحاحي وتمسكني "لا تشارك في موتي" -- أن يملأ الجاروف بالفحم ويلقيه في الجردل. يجب أن أحدد كيف سأذهب إلى هناك، سأمتطي الجردل، وأمسك بحافة الجردل المستوية، أهبط على السلالم بخفة ورشاقة، بينما يستقر الجردل تحتي بعظمة، فخيماً، فاخراً،

كإبل تبرك على الأرض، تقف، تهز جسمها تحت عصا الراعي. خببت بإيقاع منتظم خلال الممر المتجمد، غالباً ما كنت أصعد حتى الدور الأول للمنزل، لم أهبط قط إلى مستوى باب المنزل. وصعدت بصعوبة حتى وصلت إلى مستوى بدروم بائع الفحم، حيث كان يقبع هناك في الأسفل منكباً على دفاتر حساباته، وقد ترك الباب مفتوحاً من أجل درجة الحرارة المرتفعة بشكل زائد في المكان.

ناديت بصوت مجروح من شدة البرودة "يا بائع الفحم!" بينما تلفني سحابة من بخار "اعطني قليلاً من الفحم يا بائع الفحم، أرجوك. إن جردلي فارغ لدرجة أنني ركبته وجئت به إليك. كن طيباً، سأدفع لك بمجرد أن أتمكن من ذلك"

وضع البائع يده على أذنه ووجه السؤال "هل سمعت جيداً؟" من خلف كتفه لزوجته التي تجلس قريبة من المدفأة تشتغل تريكو "هل سمعت جيداً؟. زبون؟"

"أنا لم أسمع شيئاً قط ردت الزوجة باطمئنان وثقة وهي تدير ظهرها ناحية المدفأة وتواصل شغل التريكو. رفعت صوتي صائحاً "نعم أنا، زبون قديم، منضبط تماماً، لكن حالياً ليس معي نقود" نادى البائع زوجته قائلاً: "انه زبون يا امرأة، لا يمكنني أن أخطئ لهذه الدرجة. لابد أنه زبون قديم، قديم جداً، الذي يتكلم معي بهذا الود".

"ماذا بك يا رجل؟" ردت الزوجة وضغطت التريكو للحظات على صدرها وواصلت "لا أحد هناك، الممر خال. كل زبائننا عندهم ما يكفي من الفحم. يمكننا أن نغلق المحل عدة أيام نستريح فيها" "لكنني أنادي هنا وأنا جالس فوق الجردل، تملأ عيني الدموع من قسوة البرودة، فقط أنظروا لأعلى رجاءاً، سوف ترونني فوراً، أنا لا أطلب غير جاروف واحد من الفحم، ولو أنكم أعطيتموني جاروفين، سوف أكون في غاية السعادة. لقد سمعت هنا وأنا فوق الجردل، أن كل الزبائن عندهم ما يكفيهم"

"أنا قادم" قال البائع وهو يستعد للصعود على سلم البدروم، لكن المرأة قطعت عليه الطريق وأمسكت بذراعه قائلة: "ستظل في مكانك، لن تنزل. لا تكن عنيداً، سأذهب أنا. تذكر سعالك الحاد ليلة أمس. لكنك من أجل المكسب، حتى إن كان مكسباً وهمياً، تنسى الزوجة والأولاد وتضحي بصحتك. أنا ذاهبة." فرد الزوج: "إذن قولي للزبون، أن كل الأنواع عندنا في المخزن، وسوف أقول لك السعر من هنا بصوت عال" "حسناً" قالت الزوجة واتجهت إلى الممر. بالطبع سوف تراني مباشرة، ناديت "تحياتي أيتها البائعة، جاروف فحم واحد فقط لا غير، هنا في هذا الجردل، وسأنصرف فوراً، جاروف فحم من أردأ نوع. سأدفع الثمن كاملاً بالطبع، لكن ليس في الحال، ليس في الحال" أي جرس مميز لهذه الكلمات ،ليس في الحال، وأي معنى تثيره وهى تختلط بصوت أجراس الكنيسة التي عن قرب!

"ماذا يريد الرجل؟" صاح البائع من المحل "لا شيء" أجابت المرأة "لا شيء هناك، إنني لا أرى شيئاً، ولا أسمع شيئاً، أسمع فقط صوت دقات الساعة السادسة. سأغلق المحل. البرودة فظيعة، قاسية، غداً سيكون يوم عمل طويل".

إنها لا ترى ولا تسمع، ومع ذلك تفك المريلة من على خصرها وتهشني بها بعيداً. وقد كان لها ما أرادت بكل أسف. حقيقة لقد تحلى الجردل بكل صفات الحيوان الطيب، لكنه كان ضعيف التحمل والمقاومة، فهو هش جداً، مريلة امرأة دفعت قدميه بسهولة من على الأرض.

"أيتها الشريرة!" صحت في وجهها وهي تبتعد في طريقها للمحل، بمزيج من الاحتقار والرضا، ملوّحا بيدي في الجو "أيتها الشريرة!" طلبت منك جاروف فحم من أردأ نوع، وأنت لم تعطني إياه" وهكذا مشيت وسط جبال الجليد، واختفيت بلا عودة.

15

عـــودة

ها أنا قد عدت، قطعت الممر ونظرت حولي. انه فناء أبي القديم. ما زالت النقرة وسط ساحة الفناء. آلة زراعية قديمة غير مستعملة، أجزاؤها مكومة فوق بعضها، تعوق الطريق للسلالم. قط يموء في ساحة الفناء. فوطة ممزقة، ملفوفة حول عصا كلعبة، تهزها الرياح. ها أنا قد وصلت. من يا ترى سوف يستقبلني؟ من تراه ينتظر خلف باب المطبخ؟ الدخان ينبعث من المدفأة، قهوة العشاء تعدّ. هل تشعر بغربة؟ هل تشعر أنك في بيتك؟ لا أدري، إنني حقيقة غير متأكد. هذا بالفعل هو منزل أبي، ينتصب ببرودة قطعة جوار قطعة، كما لو أن كل فرد مشغول بما يعنيه من مشاكل، تلك التي نسيت أغلبها، ولم أعرف قط بعضاً منها. ماذا يمكنني أنا، أن أقدم لهم؟ ماذا أكون بالنسبة لهم؟ أنا ابن الفلاح العجوز. لم تواتني الجرأة أن أخبط على باب المطبخ، وقفت أتنصت عن بعد، شريطة ألا يفاجئني أحد، ويرى أنني أتنصت. ولأنني كنت أتنصت من بعيد، فلم أتمكن حقيقة من سماع شيء، فيما عدا دقات الساعة الآتية من الحديقة بصعوبة، أو ربما اعتقدت أنني أسمعها. ما يحدث في المطبخ، هو سر يحتفظ به الجالسون هناك

ويخبئونه عني. وكلما طالت مدة ترددي أمام الباب، كلما تزايد شعوري بالغربة. ماذا سيحدث لو أن أحدهم فتح الباب الآن فجأة ووجه إليّ الأسئلة؟ ألا أبدو ساعتها أنا الآخر كأنني أخبئ سراً؟



16

جمـــاعة

نحن خمسة أصدقاء، ذات مرة خرجنا من المنزل الواحد تلو الآخر، خرج أحدنا ووقف بجوار الباب، ثم خرج الثاني أو بشكل أدق انزلق مثل الزئبق خارج البوابة، ووقف بجوار الأول، ليس بعيداً عنه، ثم جاء الثالث فالرابع والخامس. وفي النهاية وقفنا جميعنا صفاً واحداً. تعجب المارة وأشاروا علينا قائلين: هؤلاء الخمسة خرجوا من هذا المنزل. من يومها، ونحن الخمسة نعيش سوياً. بإمكاننا أن نعيش حياة هادئة، لولا المحاولة المستمرة لدخول سادس وسطنا. انه لا يفعل شيئاً سيئاً، لكنه يزعجنا بشكل ما، وهذا يكفي، لماذا يثقل علينا، عندما يكون غير مرغوب فيه. نحن لا نعرفه، ولا نريده وسطنا. نحن أيضاً لم نكن نعرف بعضنا في البداية، ومن الممكن أننا لا نعرف بعضنا بما فيه الكفاية حتى الآن، ولكن ما هو ممكن بيننا نحن الخمسة وما نتحمله من بعضنا الآخر، ليس ممكنا أن يحدث مع السادس ولا يمكن تحمله. بالإضافة إلى أننا خمسة ولا نريد أن نكون ستة. وما معنى أن يتواجد بعضنا البعض باستمرار، حتى تواجدنا نحن الخمسة باستمرار لا معنى له، لكننا نحن الآن مع بعض سوياً، وسنظل، ولا نريد علاقات

جديدة، بناء على خبرتنا السابقة. كيف سنوضح ذلك كله للسادس، إن الشرح الطويل يعني بشكل أو بآخر موافقتنا على انضمامه لجماعتنا، من الأفضل ألا نوضح له، ولا نضمه إلينا. ولو أنه تذمر، فسوف ندفعه بكوعنا، ولو أننا دفعناه بقوة أكثر، سيعود ثانية.

17

المحامي

لم أكن متأكداً قط، إن كان هناك محام، لم أتمكن من معرفة ذلك على وجه اليقين، فالوجوه كلها تشيح عني، أغلب الذين مروا أمامي أكثر من مرة في الممرات، كانوا يشبهون النسوة العجائز، يضعن على صدورهن مرايل عريضة، تغطى الجسد كله، لونها أزرق غامق ومخططة بخطوط بيضاء، يهززن بطونهن ويتحركن بتثاقل يمنة ويسرة، لكنني لم أكن متأكدا أننا في المحكمة. هناك أشياء تؤكد ذلك وأشياء كثيرة تنفيه. إن أكثر ما يؤكد لي أنها محكمة، هي تلك الضوضاء وهذا الصخب المتواصل الذي يسمع عن بعد، والذي من الصعب تحديد جهة مصدره، فهو يملأ جميع القاعات بلا استثناء، لدرجة تجعل المرء يعتقد، أن هذه الضوضاء وهذا الصخب تنبعث من جميع الاتجاهات، أو بشكل أصح من المكان الذي يقف المرء فيه. لكن ذلك غير حقيقي فقد كانت الأصوات تأتي من بعيد. كانت الممرات ضيقة، منبعجة، تودي إلى قاعات دائرية، بها أبواب عالية عليها زخارف شحيحة، تصلح كمكان للهدوء العميق، أشبه بممرات متحف أو مكتبة عامة. وإن لم يكن هذا المبنى هو المحكمة، فلماذا أبحث هنا عن محام؟ لقد بحثت في

كل مكان عن محام، فهو ضروري في كل الأحوال، حقيقة يحتاجه المرء في المحكمة بدرجة أقل عن أي مكان آخر، فالقضاء يصدر أحكامه بناء على القانون، هذا ما يتوقعه المرء. فلو اعتقد المرء أن الأمور هنا غير عادلة ومستهترة، عندئذ تكون الحياة مستحيلة غير ممكنة، على المرء أن يثق كلية بالقضاء، وأن تكون لجلالة القضاء مطلق الحرية، فهذا واجبه الأساسي والوحيد، فكل شيء في إطار القانون، الادعاء والمحامي والحكم، وتدخل أي شخص من الخارج يكون إثماً عظيماً. يختلف الأمر في التعامل مع وقائع الحكم وحيثياته التي تعتمد على التجاوزات هنا وهناك، مع الأقارب و الأغراب، مع الأصدقاء و الأعداء، في الأسرة أو خارجها، في المدينة و القرية، باختصار في كل مكان. هنا يستلزم الأمر وجود محام، بل مجموعة من المحامين، الواحد بجوار الآخر، حائط حيّ، فالمحامي بطبعه بطيء الحركة، أما رجال الادعاء، هؤلاء الثعالب الماكرة، النشطة كابن عروس، الفئران المتخفية، التي تتسل خلال أصغر الثقوب، وبين أرجل المحامين. حذار! لذلك أتواجد هنا كي أبحث عن المحامين. لكنني لم أجد أحداً منهم، لم أجد غير هؤلاء النسوة العجائز، اللاتي يرحن ويجئن هنا وهناك، لو أنني توقفت عن البحث لداهمني النعاس بكل تأكيد. أنا لست في المكان المناسب، للأسف لا يمكنني أن أستبعد هذا الانطباع، بأنني لست في المكان المناسب. يجب أن أكون في مكان آخر، حيث يتوافد الكثير من البشر، من جهات مختلفة، ومستويات متعددة، من كل المهن والوظائف، و من أعمار متباينة، أرغب في أن تكون عندي الفرصة لأن أختار بدقة وحذر الأكفاء،

البشوشين، الذين يروقونني. ربما كانت السوق السنوية الكبرى أفضل مكان لمثل هذا التجمع. وبدلاً من أن أفعل ذلك، أضيع وقتي هنا بين الممرات، حيث النسوة العجائز يرحن ويجئن أمامي هنا و هناك، دائما نفس النسوة العجائز، و رغم حركتهن البطيئة، فهن لا تتوقفن أمامي، بل تعبرن كسحابة ممطرة وهن منهمكات ومنشغلات بشيء غير واضح بالنسبة لي. لماذا إذن أدخل بتعجل وبشكل عشوائي مبنى ما، دون أن أقرأ اللافتة التي على البوابة، أدخل مباشرة إلى الممرات، وأجلس هناك بإصرار وعناد، حتى أنني لم أعد أتذكر أنني وقفت قط أمام هذا المبنى، أو صعدت على سلالمه ذات مرة. غير مسموح لي بالعودة، هذا الوقت الضائع، الاعتراف بأنني أخطأت الطريق، أجد ذلك غير محتمل. ماذا؟ في هذه الحياة القصيرة المتعجلة المصحوبة بهذا الصخب وهذه الضوضاء، عليّ أن أصعد السلالم؟ هذا غير ممكن، مستحيل. وقت قصير هو المصرح لك به، إن فقدت منه ثانية واحدة، فقدت حياتك، فهي ليست أطول مما هي، طولها يتحدد بقدر ما تفقد من وقت. إذا ابتدأت في طريق، واصل حتى تكمله، تحت أي ظرف، هكذا فقط يمكنك أن تربح، ليس هناك من مخاطرة، ربما تسقط في النهاية، ولو أنك استدرت بعد الخطوات الأولي ونزلت السلالم، ربما تسقط أيضا في البداية، ليس ربما، بل بكل تأكيد. إن لم تجد شيئاً في الممرات، افتح الأبواب، إن لم تجد شيئاً خلف الأبواب، اصعد للدور الأعلى، إن لم تجد شيئاً هناك، لا بأس، تخيل وجود سلالم جديدة، وطالما لا تتوقف عن الصعود، فلا تنتهي السلالم، إنها تنمو تحت قدميك الصاعدتين.

18

حارس القبــور

مسرحية في فصل واحد – 1916/ 1917

(حجرة عمل صغيرة ذات نوافذ عالية، تطل على جذع شجرة عارية، الأمير -- جالساً أمام المكتب، راجعاً بالمقعد إلى الخلف، ينظر من النافذة. الياور بلحيته الكثة البيضاء، مرتدياً سترة شبابية ضيقة، مستنداً على الحائط بجوار الباب الأوسط).

(صمـــــــــــــــــت)

الأمير: (مبتعداً عن النافذة) والآن؟

الياور: لا أنصح بذلك يا معالي الأمير.

الأمير: لماذا؟

الياور: لا يمكنني أن أعبر بدقة عما أريد. انه بكل المقاييس، ليس ما أود أن أقول. - تماماً، لو أنني استشهدت بالمثل الشائع الذي يقول: لا تزعجوا الموتى!

الأمير: هذا رأيي أيضاً.

الياور: هذا يعني، أنني لم أفهم تماماً ماذا تقصد.

الأمير: يبدو ذلك.

(صمـــــــــــــــت)

الياور: ربما يكمن سبب هذا اللبس في أن التعليمات لم تكن متطابقة، كما عرضتها على سيادتكم من قبل.

الأمير: على كلّ، فالتعليمات تلقي عليّ مسئولية كبيرة، عليّ أن أتحملها.

الياور: لا مسئولية على الإطلاق!

الأمير: مرة ثانية. حتى يومنا هذا، والقبر في حديقة فريدريك يقوم بحراسته حارس يقيم في منزل صغير عند مدخل القبر. ما هو الخطأ في ذلك؟

الياور: ليس هناك خطأ بالطبع. فالقبر يبلغ من العمر أكثر من أربعمائة عام، وقد تمت حراسته بهذه الطريقة طوال هذا الوقت.

الأمير: ربما يكون ذلك مجرد سوء استخدام، لا أعتقد ذلك. هل هو سوء استخدام؟

الياور: انه تعديل ضروري.

الأمير: هو تعديل ضروري إذن. إنني أقيم هنا في هذا القصر الريفي منذ فترة طويلة، تعرفت فيها على تفاصيل كثيرة، لا يمكن للغرباء أن يعرفوها أو يثقوا بها، فهم يتحفظون عليها بشكل ردئ. ولقد وجدت، أن حارساً واحداً في الحديقة لا يكفي، بل يجب أن يزاد عدد الحراس، وأن يعين حارس آخر داخل القبر نفسه لن تكون بالطبع وظيفة مريحة، لكنه بخبرتنا في الحياة، يوجد دائما لكل وظيفة رجالها، وهم مستعدون دائماً على تقبلها والقيام بها.

الياور: سوف ينفذ كل ما يراه معاليكم بالطبع، حتى لو أن ضرورة التعليمات لا تتضمن ذلك.

الأمير: ضرورة؟ أية ضرورة؟ هل هناك ضرورة لحارس عند باب حديقة القصر؟

إن حديقة فريدريك جزء من حديقة القصر، فحديقة القصر تحيط بها، وحديقة القصر يقوم بحراستها حراس عديدون، بل إن الجيش نفسه يقوم بحراستها.

ما الذي يستوجب إذن وجود حراسة خاصة لحديقة فريدريك؟ أليس ذلك مجرد إجراء شكلي؟ مكان هادئ لموت الحارس العجوز المسكين هناك؟

الياور: انه إجراء شكلي. لكنه ضروري. من الضروري إظهار الاحترام تجاه الموتى.

الأمير: وماذا عن حارس داخل القبر نفسه؟

الياور: من الناحية الأمنية، أرى أنها وظيفة ثانوية، سوف تكون حراسة غير حقيقية، تبتعد عن الجوانب الإنسانية.

الأمير: إن هذا القبر بالنسبة لعائلتنا يمثل الحد الفاصل بين الإنساني وغيرالانساني، وعلى هذا الحد يجب أن يقف حارس. وإنني أري أن هذا الإجراء ضرورة أمنية، مثلما تقول، وعلينا عندئذ استجواب جميع الحراس. لقد أمرت باستدعائه.

(ينادي)

الياور: إذا سمح لي معالي الأمير أن أقول ملحوظة، فإنني أراه رجلاً عجوزاً خرف.

الأمير: كما لو أنك تبرر احتياجنا لحراس أكثر.

الأمير: حارس القبور!

(الخادم يقود حارس القبور للداخل، ممسكاً بذراعه، ساندأ إياه حتى لا يقع. عجوز أحمر اللون متهالك مرتجف الأوصال، يضع على صديريته زرائر فضية لامعة وأوسمة متعددة، يمسك بكاب في يده. يرتعش في مواجهة نظرات السادة).

الأمير: أرقدوه على الأريكة!

(يرقده الخادم على الأريكة وينصرف. صمت. تأوهات خافتة للحارس).

الأمير: (وهو جالس على المقعد) هل تسمعني؟

الحارس (يحاول الرد بصعوبة، لكنه لا يستطيع، فهو في غاية الإنهاك، يسقط من الإعياء).

الأمير: حاول أن تتماسك. نحن في الانتظار.

الياور: (منحنياً على الأمير) بم يمكن أن يخبرنا هذا الرجل، بأية معلومات هامة يمكن تصديقها. علينا أن نذهب به إلى السرير بأقصى سرعة.

الحارس: لا، ليس إلى السرير، ما زلت قوياً بما فيه الكفاية.

الأمير: ربما يكون ذلك أفضل. فأنت ما زلت في الستين، لكنك تبدو ضعيفاً جداً.

الحارس: سأسترد أنفاسي في الحال، سأسترد أنفاسي.

الأمير: لم أقصد إهانتك. إنني آسف لحالتك السيئة. هل تشتكي من شيء ما؟

الحارس: خدمة شاقة. أنا لا أشكو، إن قوتي تستهلك في المصارعة كل ليلة.

الأمير: ماذا تقول؟

الحارس: خدمة شاقة.

الأمير: لقد قلت شيئا آخر.

الحارس: مصارعة.

الأمير: مصارعة؟ مع من تتصارع؟

الحارس: مع الأجداد المرحومين.

الأمير: لا أفهم ماذا تقصد. هل تحلم أحلاما سيئة؟

الحارس: ليست أحلاماً، إنني لا أنام طوال الليل.

الأمير: احك لي إذن عن هذه المصارعة.

(يصمت الحارس).

الياور: (مسرعاً تجاه الحارس) يمكن للرجل أن ينتهي في أية لحظة.

(الأمير يقف أمام الطاولة).

الحارس: (عندما لمسه الياور) ابتعد! ابتعد! ابتعد!

(يمسك بأصابع الياور، يلقى بنفسه ويبكي).

الأمير: نحن نعذب الرجل.

الياور: كيف؟

الأمير: لا أدري.

الياور: الطريق إلى القصر، دخول القصر، وقوفه أمام معاليكم، الاستجواب، هذا كثير على الرجل.

الأمير: (ينظر بشكل مستمر للحارس) لا ليس ذلك (يتجه ناحية الأريكة، ينحني على الحارس، يمسك برأسه الصغير بين يديه) لا داعي للبكاء. لماذا تبكي؟ نحن نتفهم حالتك. أنا شخصياً أرى أن عملك ليس بالسهل. لكنه من المؤكد أن عملك بالقرب من القصر، كان مفيداً لك.

الحارس: لكنني أخاف من هذا الرجل هناك (ينظر للياور مهدداً دون خوف).

الأمير: (للياور) عليك أن تذهب بعيداً، حتى يمكنه أن يحكي.

الياور: أترى يا معالي الأمير، الزبد حول فمه؟ الرجل مريض بشدة.

الأمير: (يبعده) انصرف إذن، لن يستمر ذلك طويلاً.

(ينصرف الياور).

(يجلس الأمير على حافة الأريكة).

(صمـــــــــــــــــــت)

الأمير: لماذا خفت منه؟

الحارس (وقد استجمع أنفاسه): أنا لم أخف منه. أأخاف من خادم؟

الأمير: انه ليس بخادم، انه كونت، حر وثري.

الحارس: ومع ذلك فهو مجرد خادم، وأنت السيد هنا.

الأمير: هذا ما تراه، لكنك قلت أنك تخاف منه.

الحارس: عندي أشياء أود أن أقولها لسيادتكم شخصياً، ليس في حضوره. أم ترى أنني قد قلت بالفعل أمامه بعض الأشياء؟

الأمير: هذا يعني أنك تثق بي، رغم أنني أراك اليوم للمرة الأولى في حياتي.

الحارس: تراني للمرة الأولى، لكنك تعرف منذ زمن أن لي الكلمة الأولى في هذه الوظيفة. بل لقد عبرت عن ذلك أمام الجميع ومنحتني ميدالية "أحمر نار". أترى! (يرفع الميدالية من على صديريته تجاه الأمير).

الأمير: لا، هذه ميدالية مرور 25 عاماً في خدمة القصر. لقد منحها إياك جدي. لكنني سأكافئك أنا الآخر.

الحارس: افعل ما ترى وما تستحقه خدمتي في هذا القصر. ثلاثون عاماً أمضيتها في خدمتكم كحارس للقبور.

الأمير: ليس في خدمتي، بل في خدمة الحكومة، فلقد توليت أنا الإمارة منذ عام واحد فقط.

الحارس (لنفسه): ثلاثون عاماً.

(صمـــــــــــــــــــــــــــــــت)

الحارس (مواصلاً حديثه): الليالي تمر هناك كالسنين.

الأمير: حتى الآن، لم يصلني منك التقرير. كيف حال الخدمة؟ ما هي ملاحظاتك؟

الحارس: نفس الوضع كل ليلة. نفس الوضع حتى تطق من الملل.

الأمير: هل هي خدمة ليلية فقط؟ خدمة ليلية، تقوم بها أنت أيها الرجل العجوز؟

الحارس: هذا ما يحدث يا معالي الأمير. إنها في الحقيقة خدمة نهارية. وظيفة للكسل والتكاسل. يجلس المرء أمام باب القصر ويفتح

فمه لأشعة الشمس. أحياناً يربت كلب الحراسة بكفه على ركبتي، ثم يرقد ثانية. هذا هو التغيير الوحيد.

الأمير: هكذا.

الحارس (موافقاً): لكنه يتغير في الخدمة الليلية.

الأمير: من الذي يقوم بتغييره؟

الحارس: سادة القبور.

الأمير: هل تعرفهم؟

الحارس: بالطبع.

الأمير: هل يحضرون إليك؟

الحارس: نعم.

الأمير: هل حضروا الليلة الماضية؟

الحارس: نعم.

الأمير: وكيف كان ذلك؟

الحارس (يعتدل في جلسته): كالعادة دائماً.

(ينهض الأمير واقفاً).

الحارس: كالعادة دائماً. هدوء كامل حتى منتصف الليل. أتمدد في السرير – عفواً – وأدخن غليوني. في السرير المجاور ترقد ابنتي. في منتصف الليل أسمع خبطات على النافذة. أنظر في الساعة. دائماً في نفس الموعد، وبدقة. ثم يعاد الخبط على النافذة مرة أخرى بصوت مرتفع، يختلط مع دقات ساعة البرج. ليست خبطات أصابع بشرية. أعرف ذلك، ولا أتحرك. ثم أسمع صوت نحنحات متذمرة في الخارج، تتعجب أنني لا أفتح الباب رغم سماعي للخبط على النافذة. على معالي الأمير أن يتعجب! ما زال الحارس العجوز هناك! (يشير بقبضته).

الأمير: أتهددني؟

الحارس (لا يفهم ما يقصد) ليس أنت، بل أولئك الذين خلف النافذة.

الأمير: ومن هم هؤلاء؟

الحارس: تطور الموقف بسرعة. بضربة واحدة، فتحت النافذة على مصراعيها. بسرعة ألقيت الملاءة على وجه ابنتي. هبت العاصفة داخل النافذة، أطفأت النور، الدوق العظيم فريدريك! بوجهه، ولحيته وشعره يملأ النافذة عن آخرها.

كيف تغير كثيراً طوال هذه القرون العديدة. عندما كان يفتح فمه يريد التحدث، كانت ريح العاصفة تضرب لحيته العجوز بين أسنانه، فيعضها.

الأمير: مهلاً. لقد قلت الدوق فريدريك. أي فريدريك فيهم؟

الحارس: الدوق فريدريك. الدوق فريدريك فقط.

الأمير: هكذا كان يسمي نفسه؟

الحارس (بقلق): لا، لم يسمّ نفسه.

الأمير: ومع ذلك، فأنت تعرف. واصل حكايتك!

الحارس: أتريدني أن أواصل الحكى؟

الأمير: بالطبع. هذا يهمني جداً، هناك خطأ في تقسيم العمل، أنت مثقل بالعمل.

الحارس(وهو راكع): أرجوك ألا تأخذ مني وظيفتي يا معالي الأمير. لقد عشت الكثير من الزمن من أجلك، فدعني الآن أيضا أموت من أجلك! لا تسد القبر قبل أن أموت. إنني أخدمك بكل قلبي وما زلت قادراً على الخدمة. إن مقابلة كالتي تمت اليوم مع معاليكم، واستجمامي مع السيد الكبير يعطياني القوة للعمل عشر سنوات أخر.

الأمير (يجلسه ثانية على الأريكة): لن يأخذ أحد موقعك. كيف يمكن لي تعويض خبرتك! سوف أعين حارساً آخر وسوف تصير أنت كبير الحراس.

الحارس: أليس فيّ الكفاية؟ هل سمحت لأحد مرة بالمرور؟

الأمير: في حديقة فريدريك؟

الحارس: لا، خارج الحديقة. وكل من يرغب في الدخول؟ إن توقف فرد مرة أمام السور، فبمجرد أن أشيح له بيدي من النافذة، يبتعد مسرعاً. لكن الخروج، الجميع يريد الخروج. بعد منتصف الليل، يمكنك أن تشاهد جميع أصوات الموتى وهم مجتمعون في حجرتي. إنني أظن، أنه لا يمكنهم الدخول من النافذة الضيقة لأنهم يتزاحمون بشدة.

وعندما يتأزم الموقف، أخرج الفانوس من تحت السرير، وألوح به عالياً، فتبتعد هذه المخلوقات الغريبة وهي تضحك وتولول، وتختفي وسط الدغل هناك بطرف الحديقة حيث أسمع أصواتها وهي تهدر. وبعد فترة يتجمعون ثانية.

الأمير: وما هي طلباتك؟

الحارس: أولاً، تعطي أوامرك، للدوق فريدريك على وجه الخصوص. فلا يجوز الثقة كثيراً في البشر الأحياء. منذ ثلاثين عاماً، ينتظر كل مساء أن يجدني في حالة انهيار.

الأمير: لو أنه يأتيك منذ ثلاثين عاماً، فلا يمكن أن يكون الدوق فريدريك، فلقد مات الدوق منذ خمسة عشر عاماً. لكنه هو الوحيد في هذا القبر بهذا الاسم.

الحارس (وهو مندمج في السرد): أنا لا أعرف ذلك يا معالي الأمير، فأنا لم أدرس بالجامعة. أعرف فقط كيف يبدأ كل ذلك. "الكلب العجوز" يبدأ بالنافذة السادة يخبطون على النافذة، بينما أظل راقداً في فراشي القذر، كانوا يكرهون الفراش بشكل واضح. كل ليلة نكرر نفس الحديث. هو بالخارج، وأنا في مقابله مستنداً بظهري على الحائط. أقول له: "إنني أقوم بخدمة نهارية فقط" يستدير السيد ويردد بأعلى صوته في اتجاه الحديقة "إنه يقوم بخدمة نهارية فقط" فيضحك جمع النبلاء

بصوت عال. فيقول الدوق مرة أخرى: "نحن مازلنا بالنهار "فأرد قائلاً: "أنت مخطئ" يقول الدوق: "نهار أو ليل، افتح البوابة يا رجل" أرد: "هذا ضد التعليمات" وأشير بالغليون على ورقة التعليمات المثبتة على الحائط. يقول الدوق: "أنت حارسنا يا رجل" فأرد: "حارسكم فعلاً، لكنني معين من قبل الأمراء الحكام" يرد بغضب: "المهم أنك حارسنا. افتح البوابة وفي الحال" أقول: "لا" يرد: "أنت أحمق. سوف تفقد وظيفتك. لقد دعانا الليلة الدوق ليو".

الأمير: (بسرعة) أنا؟

الحارس: أنت.

(صمـــــــــــــــــــــت)

الحارس: عندما أسمع اسمك، أفقد توازني. لذلك وعلى سبيل الاحتياط،أقف طول الوقت مستنداً على الحائط. في الخارج يتغنى الجميع باسمك "أين هي تلك الدعوة؟" أسأله بصوت منخفض، يصرخ فيّ قائلاً: "أتشك في كلام الدوق يا حيوان؟" أرد: "ليست عندي تعليمات، ولذلك لن أفتح، لن أفتح، لن أفتح!" يصيح الدوق في

الخارج:"إذن، إلى الأمام! جميعكم، العائلة بأكملها في اتجاه البوابة! سنفتح هذه البوابة بأنفسنا" وفي غمضة عين، يختفي من أمام النافذة.

(صمـــــــــــــــــــــت)

الأمير: هل هذا هو كل شيء؟

الحارس: ماذا تقصد؟ الآن تبدأ خدمتي خارج المنزل وحوله، حيث أشتبك مع الدوق وأدخل معه في صراع جسدي. هو ضخم الحجم وأنا ضئيل الحجم، هو عريض المنكبين وأنا نحيف. في حقيقة الأمر، أنا أتصارع مع ساقيه، أحياناً يرفعني عالياً فيعطيني الفرصة لأتصارع مع الجزء العلوي. حولنا، يقف جميع رفاقه ويضحكون عليّ. أحدهم، على سبيل المثال، تقدم ذات مرة ومزق بنطالي من الخلف، وابتدأ الجميع في اللعب بطرف قميصي، بينما أنا مندمج في المصارعة. شيء لا يصدق. و يواصلون الضحك، ومع ذلك أفوز دائماً في النهاية.

الأمير لكن قل لي كيف يمكنك أن تفوز؟ هل معك سلاح؟

الحارس: في السنوات الأخيرة، ابتدأت بالفعل في حمل سلاح. لكنه لم يفدني بشيء، بل على العكس، كان حملاً ثقيلاً عليّ، كان يثقلني

ويحدّ من حركتي. نحن نتصارع بقبضات اليد، وفي الحقيقة نحن نتصارع بقوة النفس والتنفس. وأثناء المصارعة تكون أنت أيها الأمير دائماً أمام عيني.

(صمـــــــــــــــــــــــــــت)

الحارس: لكنني كنت واثقاً كل مرة من أنني سأفوز. وأحياناً ما كنت أخاف من أن يهرسني الدوق بين أصابعه وينسى أننا نتصارع.

الأمير: ومتى يتحقق فوزك؟

الحارس: عندما يأتي الصباح. فيلقي بي من بين أصابعه، ويبصق خلفي. هكذا يعترف بهزيمته. أما أنا فأظل مستلقياً على ظهري لمدة ساعة حتى أسترد أنفاسي.

(صمـــــــــــــــــــــــــــت)

الأمير (ينهض): لكن قل لي، ألا تدري ماذا يريدون حقيقة؟

الحارس: يريدون الخروج من الحديقة.

الأمير: لكن لماذا؟

الحارس: لا أدري لماذا.

الأمير: ألم تسألهم؟

الحارس: لا.

الأمير: ولماذا؟

الحارس: لقد خجلت أن أسألهم. لكن، إن كنت ترغب في ذلك، يمكنني أن أسألهم الليلة.

الأمير (منزعجاً و بصوت عال): الليلة؟!

الحارس (بهدوء): نعم، الليلة.

الأمير: ألا يمكنك تخمين ماذا يريدون؟

الحارس (مفكراً): لا.

(صمـــــــــــــــــــــــــــت)

الحارس: أحياناً - يجب أن أحكي ذلك أيضاً. أحيانا يأتيني في البكور، بينما أكون ما زلت راقداً متقطع النفس، وضعيفاً لدرجة أنه لا يمكنني أن أفتح عيني - يأتيني كائن رقيق، نديّ، أحس بشعره الكثيف، كزائر أخير، تأتيني الكونتيسة ايزابيللا، تتحسسني في أماكن عدة، تمسكني من لحيتي، تمر بجسمها كله على رقبتي، تحت ذقني، ثم تقول: "الآخرون لا، أما أنا، أما أنا فستتركني أخرج" أهز رأسي بالنفي "قولي للأمير ليو، واعطه يدك" وأستمر في هز رأسي "لكن أنا، لكن أنا" تردد ذلك وتنصرف. وتأتي ابنتي وتلفني بالأغطية وتنتظر بجواري، حتى أسترد أنفاسي. فتاة طيبة، غيرعادية.

الأمير: ايزابيللا! لا أعرف شخصاً بهذا الاسم.

(صمـــــــــــــــــــــــــــت)

الأمير: تعطيني يدها! (يقف أمام النافذة، ينظر منها. يدخل الخادم من الباب الأوسط).

الخادم: معالي الأمير، الأميرة المبجلة ترجو المقابلة.

الأمير (يصرف الخادم، يوجه حديثه للحارس): انتظرني حتى أعود (يخرج يساراً).

(في نفس اللحظة يدخل الياور من الباب الأوسط، ويدخل كبير أمناء القصر من الباب الأيمن - ضابط شاب مرتدياً لباسه العسكري).

(يختبئ الحارس خلف الأريكة وهو خائف، كما لو أنه رأى أشباح).

كبير الأمناء: هل ذهب الأمير؟

الياور: لقد نادته معالي الأميرة للخارج، تبعاً لنصيحتكم.

كبير الأمناء: هذا جميل (ينحني فجأة وينظر خلف الأريكة) وأنت أيها الشبح التعس، هل تجرأت فعلاً وجئت إلى هنا؟ إلى قصر الأمير؟ ألا تخشى الرفسة القوية، التي سوف تدفع بك خلال هذه البوابة إلى الخارج؟

الحارس: أنا، أنا ---

كبير الأمناء: اخرس! اخرس تماماً! اجلس هنا في هذا الركن! (للياور): أشكرك على إخبارك لي بمزاج الأمير.

الياور: لقد سألتني ذلك.

كبير الأمناء: بصرف النظر. والآن كلمة صريحة، أمام هذا الشيء هناك. سيدي الكونت، هل تغازل حزب المعارضة؟

الياور: هل أعتبر ذلك اتهاماً؟

كبير الأمناء: بل احتياطاً، في الوقت الحالي.

الياور: في هذه الحالة، يمكنني أن أقول لك، أنني لا أغازل حزب المعارضة، لأنني لا أعرفه حق المعرفة. فقط أتحسس الاتجاهات والتيارات، لكنني لا أندمج فيها.

إنني من مدرسة السياسة القديمة التي كانت تمارس إبان مرحلة حكم الدوق فريدريك. وقتها، كانت السياسة الوحيدة التي تمارس في هذا القصر هي خدمة الأمراء. ولقد كان الأمر سهلاً، لأنه كان غير متزوج -- لكن ذلك ممكن تحت كل الظروف.

كبير الأمناء: كلام حكيم. لكنه كثيراً ما يصعب على هذه العناصر -- باعتبار أنها مازالت مخلصة -- التوصل للاتجاه الصحيح، وتكون مهمتها فقط هي فهم المتغيرات. يجب أن يحدد ذلك ويحسم بشكل واضح. وعلى فرض أن الأمير متردد في اختياراته، هل يقوم المرء بخدمته فعلاً، عندما يقوم بطاعته طاعة عمياء، أم عليه أن يوقفه عند حده؟ بلا شك، واجبه أن يوقفه بكل احترام!

الياور: لقد جئت معاليكم مع زوجتكم جناب الأميرة من قصر غريب منذ ستة أشهر لا غير، وتحكم بهذه السرعة على علاقات القصر المعقدة: هذا خير وهذا شر!

كبير الأمناء: الذي يدقق، يرى المشاكل فقط، لكن الذي يفتح عينيه يرى كل شيء بوضوح. الوضوح المقبض، الذي نأمل في الأيام القادمة أن يكون في طريقه لاتخاذ القرار السليم.

الياور: لا يمكنني أن أصدق أن القرارات التي تريد أن تصدرها، والتي عليّ أن أعلنها قرارات طيبة. أخاف أنك تسئ فهم أمراءنا في هذا القصر، بل تسئ فهم كل ما يحدث هنا.

كبير الأمناء: سواء فهمت أو لم أفهم، فالأمر سيان، والوضع الحالي غير محتمل.

الياور: ربما يكون الوضع غير محتمل، لكنه نتيجة لطبيعة العلاقات هنا، وسوف نتحمله ونقوم بواجبنا حتى النهاية.

كبير الأمناء: الأميرة لا تتحمله، وأنا لا أتحمله، وكل من هو في صفنا لا يتحمله.

الياور: ماذا تراه غير محتمل؟

كبير الأمناء: سأقول لك رأيي بصراحة، بخصوص اتخاذ القرارات بالذات. للأمير وجهان وجه مشغول بالحكومة، متأرجحاً تجاه الشعب، متجاهلاً لحقوقه.

والوجه الآخر، يبحث بوضوح وبشكل متقن عن تقوية مركزه وتثبيته، يبحث عنه في الماضي، دائم التنقيب عنه. يا له من سوء تقدير! سوء تقدير لا يخلو من عظمة، عظمة في تكدسه بالأخطاء، التي هي في حقيقتها أعظم كثيراً مما تبدو للعين. هل غاب عنك ذلك؟

الياور: إنني لست ضد توصيفك للوضع، لكنني ضد أحكامك.

كبير الأمناء: ضد أحكامي؟ كان عندي أمل كبير في تفهمك لموقفي أكثر مما توقعت، لكنني سأحتفظ بقراري النهائي من أجل حمايتك. إنني أرى أن الأمير لا يحتاج حقيقة لتقوية مركزه، فلو أنه استخدم سلطاته الحالية، فسوف يكتشف أنها كافية لتحقيق كل ما يجب عليه من مسئوليات أمام الرب وأمام الشعب. انه يتجنب تحقيق هذا التوازن في أمور الحكم -- انه في طريقه إلى أن يصير طاغية!

الياور: وماذا عن روحه المتواضعة؟

كبير الأمناء: إنه يتواضع في أحد وجهيه، لأنه يحتاج قوته كلها للوجه الآخر، الشيء الذي ينسف كل الأسس، التي تكفي لنسف برج بابل. يجب

أن يوقف ذلك، وأن تكون هذه هي مهمة الأفراد، الذين يهمهم موقعهم الشخصي، كما تهمهم الإمارة، والأميرة، وربما لمصلحة الأمير نفسه.

الياور: "ربما عندك حق" أراك تتكلم بصراحة وقلب مفتوح. وصراحتك تلك، تجعلني أرتعش أمام إعلان قراري. بل انني آسف أشد الأسف، لأنني كنت طوال هذه الفترة مخلصاً لمعالي الأمير وضعيفاً أمامه لهذه الدرجة.

كبير الأمناء: الآن، أصبح كل شيء واضحاً. أنت لا تغازل فقط حزب المعارضة، بل تشاركه الرأي وتمد يدك إليه. شيء واحد فقط يجب أن نقدره في موظف عجوز بالقصر. أن يظل الأمل الوحيد، هو أن يثيرك تصورنا وتتحمس لحلمنا الكبير.

الياور: سأفعل ما يمكنني فعله لكي أوقفه.

كبير الأمناء: لم يعد يقلقني ذلك (يشير على حارس القبور) وأنت، أنت تظل هكذا هادئاً في مكانك، هل سمعت و فهمت كل ما قد قيل أمامك؟

الياور: حارس القبور؟

كبير الأمناء: نعم، حارس القبور. أغلب الظن، أنه يجب أن تأتي من الخارج، حتى يمكنك التعرف عليه. أليس كذلك يا صغيري؟ أيتها

البومة العجوز؟ هل شاهدته مرة وهو يطير في الغابة ليلاً بمهارة فائقة؟ أما في النهار فهو يبحث عن ركن ليختبئ فيه.

الياور: أنا لا أفهم ماذا تقصد.

الحارس (وهو على حافة البكاء): إنهم يتشاجرون معي يا سيدي، لا أدري لماذا.

أرجوك، دعني أعود للمنزل. انني لست شريراً، بل حارس قبور بسيط.

الياور: أنت لا تثق به.

كبير الأمناء: أثق به؟ لا، انه أكثر من تافه. لكنني أريد أن أسيطر عليه. إنني أعتقد أنه ليس مجرد أداة للشر، بل عنصر نشط في ممارسة الشر.

الياور: انه يخدم بهدوء في البلاط حوالي ثلاثين عاماً، دون أن يقترب مرة واحدة من القصر.

كبير الأمناء: هؤلاء الفئران يحفرون أخاديد طويلة قبل أن يظهروا على السطح

(يستدير فجأة للحارس) قبل كل شيء ألقوا بهذا خارجاً!

(متحدثاً للخادم) خذه إلى حديقة فريدريك، وابق معه، وامنعه من الخروج حتى صدور أوامر أخرى.

الحارس (وهو خائف بشدة): عليّ أن أنتظر معالي الأمير.

كبير الأمناء: ألق به بعيداً!

الياور: يجب أن يعامل بعناية. انه رجل عجوز ومريض، والأمير يعتمد عليه كثيراً.

(ينحني الحارس للياور شاكراً)

كبير الأمناء: ماذا تقول؟ (متحدثاً للخادم) عامله بعناية، وألق به خارجاً! أسرع!

(يتقدم الخادم ممسكاً بالحارس)

الياور (يتدخل بينهما): اذهب وأحضر عربة!

كبير الأمناء: هذا هو الجو العام للقصر. لا طعم لشيء. أحضر عربة، فأنت تنقل شيئاً غالياً ثميناً. وبسرعة، اختفيا أنتما الاثنان من هنا! بسرعة!

(متحدثاً للياور) إن موقفك يعني.....

(يلقي بالحارس في العربة فيصرخ صرخة خفيضة)

كبير الأمناء (ضارباً الأرض برجله): هل من المستحيل التخلص من هذا الرجل؟ إذن فلتحمله على ذراعيك ان تعذر ذلك. افهم ونفذ ما يطلب منك!

الياور: معالي الأمير.

(يفتح الخادم الباب يساراً)

كبير الأمناء: بالطبع! نظرة على الحارس! كان عليّ أن أعرف، أن الأشباح لا ينقلون بالعربات.

(يدخل الأمير بخطى مسرعة، تتبعه الأميرة، امرأة شابة تتشح باللون الأسود، يعض الأمير على أسنانه، يظل واقفا عند الباب).

الأمير: ماذا حدث؟

كبير الأمناء: لقد أغمى على الحارس، فرأيت أن أبعده.

الأمير: كان عليكم أن تخبروني. هل أحضرتم الطبيب؟

الياور: سأناديه (يخرج مسرعاً من الباب الأوسط ويعود بسرعة).

الأمير (راكعاً بجوار الحارس): جهزوا له السرير! أحضروا النقالة! هل الطبيب في الطريق؟ لا يمكنه أن يظل هكذا طويلاً. نبضه ضعيف جداً، وقلبه لا يمكن سماع دقاته. هذه الضلوع التعيسة. كيف تآكل كل شيء واستهلك (يقف فجأة، يحضر كوب ماء بينما ينظر حواليه) الرجل لا يتحرك (يركع ثانية، يبلل وجه الحارس بالماء) الآن يتنفس، هذا أفضل. سوف يتحسن، فهو عرق صلب، لا يستسلم، حتى آخر نفس. لكن الطبيب، الطبيب! (بينما ينظر تجاه الباب، يرفع الحارس يده ويمسح على وجنة الأمير).

(تشيح الأميرة بنظرها تجاه النافذة. يدخل الخادم بالنقالة، الأمير يساعد في وضع الحارس عليها).

الأمير: أمسكوه برقة! بهذه المخالب! ارفعوا الرأس قليلاً. اقتربوا بالنقالة. ضعوا المخدة تحت ظهره، لأسفل، أكثر. الذراع! الذراع! أنتم ممرضون فاشلون.

يوما ما ستصبحون أنتم أيضا مجهدين مثل هذا الذي يرقد على النقالة.

والآن بخطوات بطيئة محاذرة ومتوازنة سأكون خلفكم (محدثاً الأميرة عند الباب) هذا هو حارس القبور.

(الأميرة تهز رأسها).

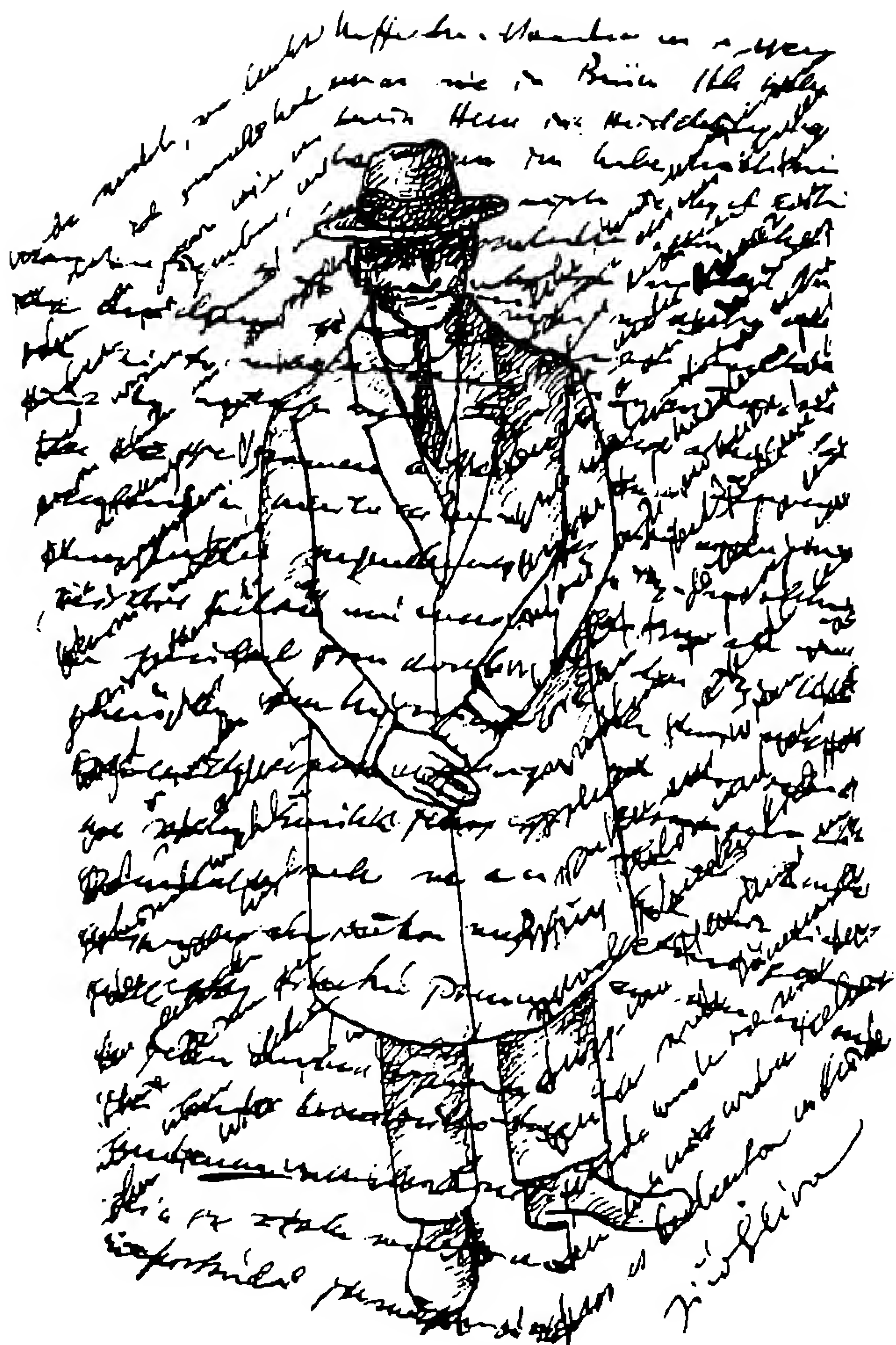
الأمير: كنت أود أن أعرفك عليه وهو في حالة مختلفة (يخطو جانباً) ألا تريدين أن تأتي معي؟

الأميرة: إنني متعبة جداً.

الأمير: سأعود بمجرد أن أقابل الطبيب. وأنتم أيها السادة، انتظروني بتقاريركم حتى أعود (ينصرف).

كبير الأمناء (موجهاً حديثه للأميرة): هل تحتاج معالي الأميرة لخدماتي؟

الأميرة: دائماً. أحتاجها دائماً. أشكرك كثيراً على يقظتك. لا تتوقف عنها، حتى لو كانت اليوم بلا نتيجة. الأمر يتعلق بالوضع ككل. أنت ترى أكثر مني. سأكون في غرفتي. وأعرف أن الأمر سيزداد سوءا، سيزداد سوءا. سوف يكون هذا الخريف خريفاً حزيناً، حزناً لا حد له.



19

طبيب الأرياف

كنت في مأزق حقيقي: أمامي رحلة عاجلة، ينتظرني مريض في حالة حرجة، بقرية تبعد حوالي عشرة أميال، المسافة المتسعة بيني وبينه تملأها عواصف ثلجية عنيفة، كانت عندي عربة خفيفة، كبيرة العجلات، مناسبة تماماً لطرق الأرياف في منطقتنا، تدثرت بالمعطف الفرو، وأمسكت بحقيبة الفحص في يدي، ووقفت في فناء الدار جاهزاً للرحلة، لم يكن ينقصني سوى الحصان، نعم الحصان. فلقد مات حصاني الليلة الماضية، نتيجة الإرهاق الشديد من كثرة العمل في هذا الشتاء الجليدي، الآن ذهبت شغالتي للقرية تبحث عن حصان نقترضه، بلا نتيجة، توقعت ذلك، بينما كان الجليد ما زال يتساقط بشدة ويتراكم، تجمدت في مكاني ووقفت هناك في حيرة. ظهرت الفتاة عند البوابة وحدها دون حصان، في يدها المصباح يهتز، أفهم ذلك، فمن يقرض حصانه في مثل هذا الطقس السيئ لرحلة طويلة كتلك؟ قمت بقياس الفناء أكثر من مرة جيئة وذهاباً، مشتتاً، قلقاً، دون أن أجد مخرجاً ما، اصطدمت قدماي بباب حظيرة الخنازيرالمكسور، الذي لم يستعمل منذ سنوات. انفتح الباب وتأرجح. تصاعدت منه رائحة

الخيول ودفئها، مصباح شحيح الضوء يتأرجح على حبل ما. رجل يجلس القرفصاء في الحظيرة الخشبية الواطئة السقف، يظهر وجهه بوضوح بعينيه الزرقاوتين." هل أسرج العربة؟" سألني وهو يزحف على أربع. لم أدر ماذا أقول، ودرت أفتش في الحظيرة إن كان هناك شيء آخر. قالت الشغالة التي تقف بجواري "لم يعد يعرف المرء، ماذا يوجد في منزله" ثم ضحكنا نحن الاثنين. "أهلاً بك يا أخي، أهلاً بك يا أختاه" قال سائس الخيل وأمامه يتبختر حصانان قويان الواحد خلف الآخر، الأرجل ملتصقة بالجسد، الرؤوس جميلة مقوسة كرؤوس الجمال، بصعوبة تمكنا من الخروج من فتحة الباب، لضخامة كفليهما اللذين كانا يسدانه عن آخره. انتصب كل منهما ورفعا أرجلهما، والتصق جسديهما الساخنين ببعضهما، "ساعديه" قلت للفتاة، فأسرعت الفتاة بحماس وناولت السائس سيور العربة، وما أن اقتربت منه الفتاة حتى أمسك بها السائس وانقض بوجهه على وجهها يقبلها. صرخت الفتاة وفرت هاربة في اتجاهي، وعلى خدها علامات حمراء لصفين من الأسنان. "يا حيوان" صرخت فيه بغيظ "هل تريد الكرباج؟" تماسكت بعدها مباشرة، وتذكرت أنه رجل غريب لا أعرف من أين أتى، وأنه يعرض على مساعدته بينما خذلني الآخرون. وكما لو أنه قرأ أفكاري، لم يأخذ تهديدي مأخذ الجد، ولم يفعل سوى أنه استدار ناحيتي وهو ما زال منشغلاً بالخيول وقال لي "اصعد العربة"، حقيقة كان كل شيء جاهزاً. عربة بمثل هذا السرج الجميل لم أركبها قط. صعدت العربة وأنا مبتهج. قلت له "أنا الذي سوف أقود بالطبع، فأنت لا تعرف

الطريق" فرد قائلاً "مؤكد. فأنا لن آتي معك، أنا سأبقى مع روز "لا" صرخت روزا وفرت مسرعة داخل البيت، وهي تتوقع قدرها الذي لا فكاك منه، لقد سمعت صوت السلسلة وهي تغلق الباب، وصوت أبواب البيت وهي تصطفق، شاهدتها تجري في الممرات وتطفئ أنوار الغرف جميعها، حتى لا يمكن أن يجدها. "أنت تأتي معي" قلت للسائس "هذا وإلا سألغي الرحلة، فهي ليست ضرورية لهذا الحد. لم أفكر قط أن أعطيك الفتاة ثمناً للرحلة" "شي! انطلقا!" صاح الرجل وصفق بيديه، فانطلقت الخيول بالعربة واندفعت كأنها قطعة خشب وسط طوفان مياه، أسمع ما زلت، كيف يطقطق باب المنزل من دقات السائس الهائج التي تكاد تكسره، وامتلأت عيناي وأذناي بضجيج أفقدني شعوري للحظة، بعدها وجدت نفسي أمام بوابة فناء المنزل، منزل المريض. لقد وصلت بالفعل، توقفت الخيول وهدأت، كما توقف سقوط الجليد، ضوء القمر يملأ المكان، أسرعت أم وأب المريض لاستقبالي، تتبعهما أخته، كادوا يحملونني حملاً من على العربة، لم أسمع الكلمات المضطربة، كان هواء غرفة المريض فاسداً، وكانت المدفأة المهملة يتصاعد منها الدخان، كان من الضروري أن أفتح النافذة، لكنني أردت أن أرى المريض أولاً. شاب نحيل، يرقد في السرير، ليس بارداً، و ليس ساخناً، ليس عنده حمى، له عينان فارغتان، وبدون قميص، اعتدل الشاب من تحت الفراش وتعلق بعنقي هامساً لي في أذني "دعني أموت يا دكتور تلفت حولي، لم يسمعه أحد، يقف الأب والأم صامتين ينتظران قراري، أحضرت الأخت مقعداً وضعت عليه

الحقيبة. فتحت الحقيبة أبحث عن بعض الآلات، بينما ظل الشاب يقرصني من تحت السرير، حتى يذكرني برغبته. أمسكت بجفت، فحصته في ضوء شمعة، ثم وضعته ثانية. كنت في حالة ضيق، ففي مثل هذه الحالات نحتاج لمساعدة الآلهة، كى ترسل لك الحصان الذي تحتاجه، وترسل بحصان آخر حتى يختصر الوقت، وتتبرع بسخاء بسائس للخيول - الآن أتذكر روزا، ماذا على أن أفعل، كيف لي أن أنقذها، كيف أخلصها من سائس الخيول هذا، وبيني وبينها عشرة أميال، وخيول لا يمكنني التحكم فيها تجر عربتي؟ هذه الخيول التي فكت السيور بشكل ما، وكسرت النافذة من الخارج، لا أعرف كيف أدخل كل منهما رأسه من النافذة، وراحا يتجولان بنظراتهم في الغرفة و يراقبان المريض وسط صرخات الأسرة. من الأفضل أن أعود فوراً، هكذا قلت لنفسي، كما لو أن الخيول تدفعني لذلك، لكن علىّ أن أتحمل، فالأخت التي تعتقد أنها خدرتني بالدفء، أخذت مني المعطف الفرو ووضعته جانباً. ثم صبوا لي كأساً من الروم، خبط الأب على كتفي بثقة وود، فقد سلم ابنه لي. هززت رأسي رافضاً، بسبب إصرار العجوزالذي أزعجني وأفقدني الرغبة في الشرب. تقف الأم بجوار السرير وتحاول التودد لي، فاستسلمت لها، بينما تصهل الخيول بصوت عال يهز الغرفة، وضعت رأسي على صدر الشاب الذي كان يرتجف تحت لحيتي المبللة. تأكدت مما كنت أعرف: الشاب سليم تماماً، مجرد بعض الاضطرابات الدموية الخفيفة، نتيجة اهتمام الأم الزائد، وكميات القهوة المبالغ فيها التي تغرقه بها، لكنه بشكل عام سليم، يحتاج لدفعة

بسيطة لينهض من السرير. أنا لست مصلحاً للكون، سأتركه راقداً في سريره. فأنا في نهاية الأمر، لست إلا موظفاً في الدائرة وأقوم بواجبي على أكمل وجه، بل أكثر مما يجب، ورغم ضئآلة مرتبي، إلا أنني كريم، أعالج الفقراء دائماً بلا مقابل. لكنني يجب أن أهتم بروزا، وربما يكون الشاب على حق، فأنا أيضاً أريد أن أموت. ماذا أفعل هنا في هذا الشتاء الذي لا نهاية له! لقد مات حصاني، ولا أحد في القرية يقرضني حصانه. وفي حظيرة الخنازير وجدت حظي، فلو أنني لم أجد الخيول صدفة هناك، لكان عليّ أن أسرج الخنازير في العربة. هكذا هو الوضع. أهز رأسي للأسرة. هم لا يعرفون الوضع على حقيقته، ولو أنهم عرفوا لما صدقوا. كتابة الروشتات عملية سهلة، لكن التفاهم مع البشر عملية شديدة الصعوبة والتعقيد. هنا انتهت الزيارة، لقد تسببوا في ازعاجي ثانية دون مبرر، لكنني تعودت على ذلك. هم وجرس منزلي الليلي، الدائرة كلها تزعجني، لكنني هذه المرة على أن أهتم بروزا، تلك الفتاة الجميلة، التي تعيش معي في المنزل، والتي لم أعرها اهتماماً كافياً، طوال تلك السنوات - تضحية كبيرة، يجب أن أجد طريقة ما تساعدني على التخلص من هذه الأسرة التي لن ترجع لي روزا بأية حال. وعندما أغلقت حقيبتي وأمسكت بمعطفي الفرو، وجدت الأسرة كلها واقفة في مواجهتي، الأب يتشمم كأس الروم في يده، الأم غير مقتنعة - ماذا ينتظر الناس إذن؟ تضغط على شفتيها من الغيظ وعيناها مليئتان بالدموع، بينما الأخت تمسك بمنشفة غارقة في الدم، مما جعلني على استعداد في هذه الظروف أن أقول: أن الشاب مريض بالفعل. ذهبت

تجاهه، ابتسم الشاب ابتسامة عريضة، كما لو أنني قدمت له هدية نادرة - الآن تصهل الخيول من جديد، مما عمل على تخفيف عملية فحص الشاب، وجدتها: الشاب مريض فعلاً. فعلى جانبه الأيمن، في منطقة الخصر أعلى الفخذ، يوجد جرح كبير غائر ورديّ اللون بدرجات متعددة، فعمق الجرح وردي غامق، بينما يخفّ لونه تدريجياً في اتجاه الحواف، والجرح نفسه ملئ بحبيبات صغيرة، تغطيه طبقة غير منتظمة من الدم المتجلط، مفتوح كما لو أنه فوهة منجم. وعند الاقتراب منه، تزداد الصورة تعقيداً. فمن يمكنه أن يرى ذلك دون أن يصاب بالغثيان؟ ديدان، ديدان بطول وسمك اصبعى الخنصر، وردية اللون، يتناثر حولها الدم، تتعلق بقاع الجرح وتتقلب في الضوء برؤوسها الصغيرة البيضاء وأرجلها العديدة. مسكين أيها الشاب، لا أحد يمكنه مساعدتك. لقد وجدت جرحك الكبير، تلك الوردة التي في جانبك، ستكون فيها نهايتك. كانت الأسرة مسرورة وهى تراقبني منهمك في العمل، الأخت تقول للأم، والأم تقول للأب، والأب يقول للجيران، الذين يتوافدون من الباب مع ضوء القمر، ويقفون على أطراف أقدامهم، فاردين أذرعتهم حتى لا يفقدوا توازنهم. "هل ستنقذني؟" همس الشاب وهو يجهش بالبكاء، مأخوذا بزخم الحياة يتأجج في جرحه. هكذا هم الناس في منطقتنا، يطلبون المستحيل من الطبيب، دائماً. لقد فقدوا المعتقدات القديمة، وجلس القس في منزله يرتق أثوابه القديمة، الثوب تلو الآخر، وعلى الطبيب أن يقوم بكل شيء بيديه. وهكذا، قدمت نفسي لكى أستهلك في أهدافكم المقدسة، استسلمت، ماذا أريد أفضل من

ذلك، كطبيب أرياف عجوز سرقوا منه شغالته! وجاءوا: الأسرة وعجائز القرية، نزعوا عني ملابسي، أمام الباب وقف مدرس يقود كورس أطفال المدرسة وهم يغنون أغنية بسيطة اللحن:

- انزعوا ملابسه، حتى يشفى

- إن لم يشف فاقتلوه

- انه مجرد طبيب، انه مجرد طبيب

أصبحت عارياً تماما، وضعت إصبعي على ذقني وأدرت رأسي أتأمل الناس وأنا مأخوذ مندهش، أفكر في ما يحدث، رغم أن ذلك لا يغير من شيء، أمسكوا برأسي وبرجلى ووضعوني في السرير، ناحية الحائط، في مواجهة الجرح. ثم خرجوا جميعهم من الغرفة، وأغلقوا الباب، توقف الغناء، غطت السحب القمر، الفراش يلفني يدفئني، رؤوس الخيل تتراقص ظلالها أمام النوافذ. "أتعرف؟" سمعته يهمس في أذني "ثقتي فيك ضعيفة جداً، لقد تحررت أنت أيضاً، فأنت نفسك لا تقدر أن تقف على قدميك. بدلاً من أن تساعدني، تضايقني في فراش الموت. أتمنى أن أقلع لك عينيك" "معك الحق" قلت له "إنها إهانة بحق. عار حقيقي. ما أنا إلا مجرد طبيب، ماذا عليّ أن أفعل؟ صّدقني، لن يكون ذلك سهلاً بالنسبة لي أيضا." "أيكفيني هذا الاعتذار؟ أغلب الظن أنه يجب عليّ ذلك. عليّ دائماً أن أكتفي بما هو قائم. بجرح جميل

جئت الى العالم. كان ذلك هو زادي كله. كان ذلك هو كل ما أحتاجه" "صديقي الصغير قلت له "خطؤك: أنك محدود الأفق. أنا الذي درت في غرف الكثير من المرضى، هنا وهناك، في المنطقة كلها، أقول لك: جرحك ليس سيئاً لهذه الدرجة. بضربتين من الفأس في الزاوية الحادة يحدث ذلك. يفعل ذلك الكثيرون، يقدم كل منهم جنبه، ويسمعون بالكاد ضربة الفأس في الغابة، ويصمتون عندما تقترب منهم." هل يحدث ذلك فعلاً؟ أم أنك تخرف من الحمى؟" "هذا يحدث بالفعل. خذها كلمة شرف من طبيب الأرباف الرسمي. صدقني صدقه وصمت. والآن حان الوقت لأن أفكر في انقاذ نفسي من الموقف الذي أنا فيه. الخيول واقفة في مكانها ما تزال. جمعت ملابسي ومعطفي وحقيبتي، لم أرد أن أضيع الوقت في ارتداء الملابس، إنطلقت الخيول مسرعة، وددت لو أنني قفزت من هذا الفراش إلى فراشي مباشرة. تراجع أحد الخيول برأسه من النافذة، ألقيت بالأشياء في العربة، وقع المعطف بعيداً، علق كمه بأحد خطاطيف العربة، لا بأس. قفزت على الحصان. فككت السيور، ربطت الحصان بالحصان الآخر، ثم بالعربة خلفهما بسرعة، المعطف يتجرجر في الجليد. صحت "شي! انطلقا!"، لكنهما لم ينطلقا كما ينبغي، بل سارا يتلكئان ببطء في الصحراء الجليدية كرجلين عجوزين، خلفنا كانت تترد ما زالت لفترة طويلة أصوات الأطفال وهم يغنون أغنية جديدة خاطئة:

ابتهجوا أيها المرضى!

فالطبيب يرقد معكم في الفراش!

لم يحدث أنني عدت قط بهذه الحالة الى منزلي، لقد فقدت عيادتي المزدهرة، وسيسرقني من يحل محلي، بدون فائدة، فهو لا يمكنه أن يأخذ مكاني، في البيت يسب سائس الخيول المقرف ويلعن، كانت روزا ضحيته، لا أريد أن أفكر في ذلك. عار تماماً، أخوض أنا الرجل العجوز، وسط جليد هذا العصر التعس، بعربة أرضية، تجرها خيول غير أرضية. ما زال معطفي معلقاً بالعربة، لا يمكنني أن أصل إليه، ولا أحد من أشباح مرضاى المتحركة يحاول أن يساعدني. خيانة! خيانة! أنني تبعت الجرس الليلي هذه المرة - مستحيل أن تنصلح الأمور.

20

في الحلــبة

لو أن امرأة هزيلة شاحبة تسعل بشكل متقطع وهي تمتطي ظهر حصان يدور بها وسط الحلبة أمام جمهور لا يتعب ولا يمل، تحت رحمة مدير فظ، يفرقع بسوطه في الهواء بلا توقف، الحصان يدور ويدور بها في دوائر لا نهاية لها، وبينما تتأوه المرأة من الألم، توزع القبلات على الجمهور، تحاول التوازن وتواصل اللعبة وسط صخب الموسيقى التي لا تتوقف، وصوت أجهزة التهوية المتواصل المؤدي إلى مستقبل تعس، وتصفيق الأيدي الذي ما أن يتوقف حتى يعود، والذي هو في حقيقته ليس سوى خبطات مطارق في الرأس - عندئذ، ربما يسارع شاب من وسط الجمهور، مهرولاً على درجات السلالم وسط الممرات الطويلة، مندفعاً إلى الحلبة وسط ضجيج أبواق الأوركسترا التي تتكيف دائماً مع الموقف وتتلاءم، صائحاً: أوقفوا ذلك!

وحيث أن الأمر ليس كذلك - تظهر فجأة امرأة جميلة في رداء أحمر، وهى تتبختر بين الستارة التي يفتحها لها الخدم المتباهين بزيهم الرسمي، يتتبعها المدير بنظرات كلها شبق وإعجاب، يقف في مواجهتها متخذاً وضعاً حيوانياً، يأخذ نفساً طويلاً، ثم يرفعها بحنان وحذر على ظهر

الحصان الأشهب، كما لو أنها حفيدته الغالية المحبوبة وهى تستعد لرحلة خطرة، يتردد في أن يعطي بسوطه إشارة البدء، يتغلب على نفسه في النهاية، ويعطى الإشارة بفرقعة عالية من سوطه، يجري بفم مفتوح لاهثاً بجوار الحصان، متابعاً قفزات المرأة بنظراته الملتهبة، منبهراً بمهارتها الخارقة، محذراً إياها باللغة الإنجليزية، بينما يغضب الفرسان الآخرون، من هذا الاهتمام الزائد عن الحد بتلك المرأة، ويأمرون الأوركسترا وهى في ذروتها عند لحظة قفزة الموت، بأن تتوقف.

في النهاية، ينزل المدير الصغيرة من على الحصان، يقبلها على وجنتيها، غير عابئ بصياح الجمهور وتهليله، بينما تقف هي على أطراف قدميها، مستندة عليه، وسط الغبار المتناثر، ملقية برأسها للخلف، فاتحة ذراعيها، تود أن تحتضن جمهور السيرك كله وتوزع سعادتها عليهم جميعاً.

وحيث أن الأمر هو كذلك -- انكفأ الشاب بوجهه على الحاجز الحديدي، واستغرق في المارش الأخير كما لوْ أنه في كابوس ثقيل، وبكى.

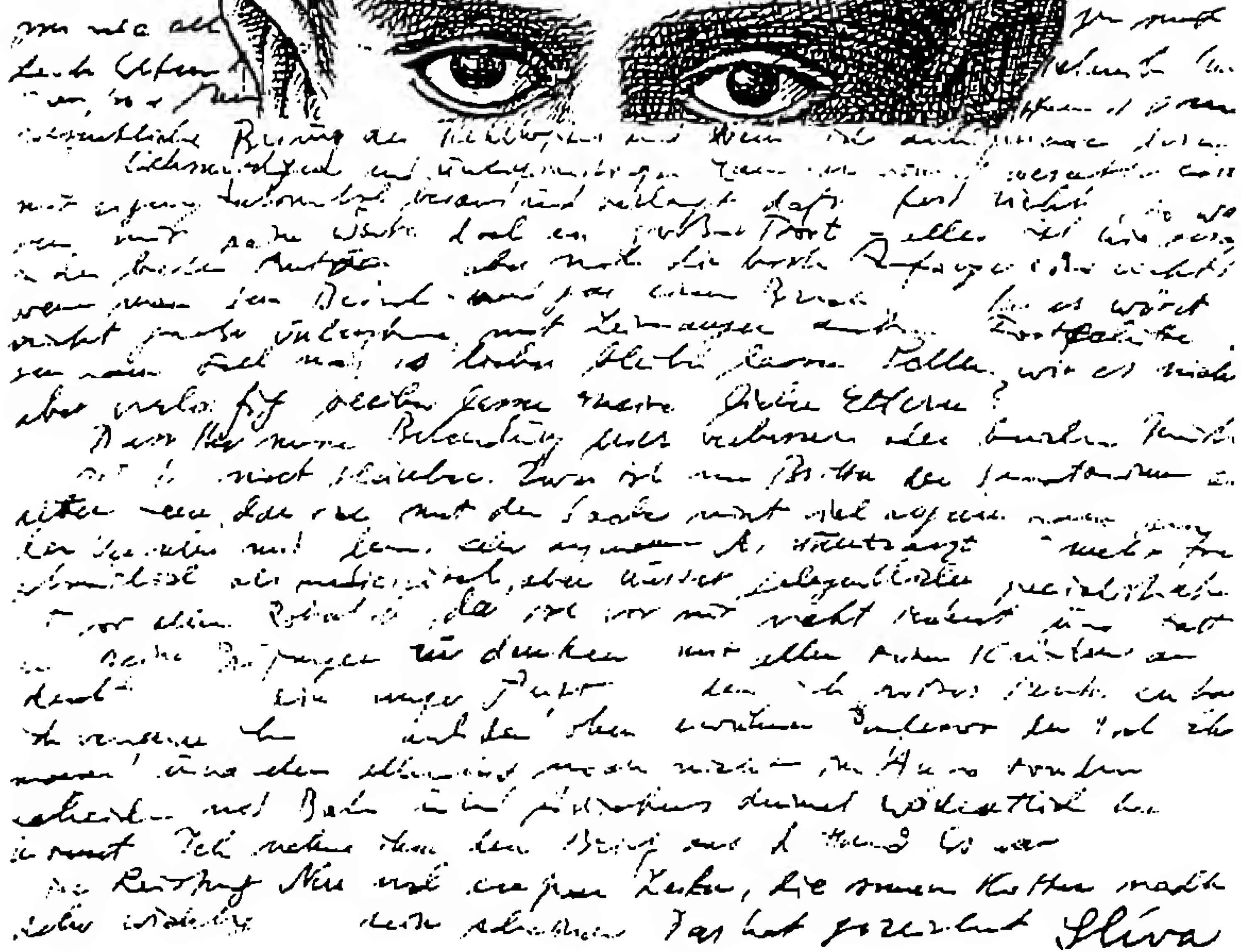
21

أمام القانون

أمام القانون يقف حارس بوابة القانون. أمام هذه البوابة يقف فلاح قروي يتوسل إلى الحارس أن يدخله إلى القانون. أخبره الحارس أنه غير مسموح الآن بأن يدحله. فكر الرجل ثم سأله إن كان سيسمح له بالدخول بعد ذلك. "هذا محتمل" أجاب حارس البوابة "لكن ليس الآن" ولأن بوابة القانون دائماً مفتوحة، انتحى الحارس جانباً، فانحنى الرجل لكي يلقي نظرة من البوابة على الداخل. عندما لاحظ الحارس ذلك ضحك قائلاً: "لو أن ذلك يهمك لهذه الدرجة، فلتحاول اذن أن تدخل رغم قرار المنع، وليكن في معلومك أنني قوي، وأنني أصغر الحراس هنا، وأنه عند كل قاعة في الداخل، يقف حارس، كل حارس أقوى من الآخر. فمجرد رؤية الحارس الثالث لا يمكنني أنا نفسي أن أتحملها" لم يتوقع القروي كل هذه الصعوبات، فالقانون يجب أن يكون في متناول كل فرد وفي أي وقت، هكذا قال لنفسه، لكنه عندما تأمل الحارس بمعطفه الفرو السميك وبأنفه الضخم المدبب ولحيته التترية الطويلة النحيلة السوداء، قرر أنه من الأفضل أن ينتظر حتى يؤذن له بالدخول. أحضر له الحارس مقعداً صغيراً واطئاً بدون

ظهر، وسمح له بأن يجلس عليه بجوار البوابة. هناك ظل جالساً لأيام ولسنوات. حاول الدخول أكثر من مرة وأرهق الحارس برجاءاته. وكثيراً ما كان الحارس يسأله باقتضاب عن قريته وعن أشياء أخرى عديدة. كانت أسئلة دون أي اهتمام حقيقي، مثل تلك الأسئلة التي يطرحها السادة الكبار، وفي النهاية يقول له دائماً، أنه لا يمكنه بعد أن يسمح له بالدخول. وقد حاول الرجل أن يقدم للحارس بعضاً من الأشياء الكثيرة التي أحضرها معه في رحلته الطويلة، بل وعرض عليه بعض الأشياء القيمة الغالية الثمن على سبيل الرشوة. كان الحارس يأخذها جميعها ويقول له: "انني أقبل هذه الأشياء فقط، حتى لا تعتقد بأنك قصرت في حق نفسك" وطوال هذه السنوات، كان الرجل يراقب الحارس بلا توقف. لقد نسى الحراس الآخرين وكان يرى في هذا الحارس الأول، العقبة الأساسية للدخول إلى القانون. في السنوات الأولى كان يلعن الصدفة التعسة بصوت عال وبدون حذر، وبمرور الزمن عندما تقدم به العمر وصار عجوزاً، كان يزمجر لنفسه ويهمهم بأصوات مبهمة غير مفهومة. أصبح أجمقاً، لسنوات طويلة، ظل يدرس فيها الحارس بالتفصيل، حتى البراغيث التي في ياقة معطفه، طلب منها أن تساعده وتتوسط له عنده. في النهاية ضعف نظر الرجل، وما عاد يعرف ما إذا كان الظلام قد حل أو أن عينيه لم تعد تميز الأشياء بوضوح. لكنه يرى على طول الخط بريقاً يتلألأ في الظلام آتياً من أبواب القانون. الآن لم يعد أمامه الكثير ليعيشه. قبل موته، تجمعت في رأسه كل خبراته طوال ذلك الوقت وتركزت في سؤال واحد، لم يطرحه بعد

على حارس البوابة. أشار له بيده، فلم يعد قادراً على أن ينهض بجسمه المتصلب المهدود. كان على الحارس أن ينحني كثيرإلى أسفل حتى يمكنه أن يسمعه، وهكذا تغيرت الأوضاع لصالح الرجل "ماذا تريد أن تعرف أكثر من ذلك؟" سأله الحارس "أنت لا تكتفي" "الكل ما زال يلهث وراء القانون" قال الرجل "لكن ما لفت نظري، أنه طوال كل هذه السنوات، لم يطلب أحد الدخول إلى القانون، سواى أنا؟" لاحظ الحارس أن الرجل يشرف على نهايته، واضطر أن يصرخ بأعلى صوته حتى يمكنه أن يسمعه: "هنا لا يمكن لأحد قط أن يدخل، فهذا الباب كان مخصصاً لك وحدك. سأذهب الآن لأغلقه"



22

أحد عشر ابناً

لي أحد عشر ابناً.

الابن الأول، دميم الخلقة لكنه جاد وذكي. ومع ذلك، فأنا لا أقدره كما ينبغى، رغم حبي له كبقية الأبناء. يترائى لي أن تفكيره بسيط للغاية. فهو لا ينظر الى اليمين ولا الى اليسار، كما أنه لا ينظر حتى الى الأمام. انه يلف ويدور حول نفسه في دائرة فكره الضيقة المحدودة.

الابن الثانى، جميل الطلعة، ممشوق القوام، سليم البنية، يبهرك اذا ما رأيته فى وضع المبارز. له خبرة واسعة بالعالم، فقد رأى الكثيرفى أسفاره. لذا فإن الطبيعة تثق في التحاور معه أكثر مما تثق في الآخرين، الذين لم يفارقوا الوطن. لم تكن أسفاره وحدها هي مصدر تلك الثقة، بل كان السبب المباشر هو تفرد ذلك الابن، ذلك التفرد الذي يعترف به الجميع. فعندما يحول أحدهم أن يقلد قفزاته الفنية في الماء، تسعفه الرغبة والشجاعة بالكاد لحد حافة منصة القفز، ثم يجلس هناك، ويرفع ذراعيه معتذراً عن القفز.

كان على أن أكون فخوراً وسعيداً بمثل هذا الابن، لكن رغم ذلك كله، فعلاقتنا ليست طيبة كما ينبغى. عينه اليسرى أصغر قليلاً من عينه اليمنى، وبها ارتعاشة خفيفة تضطره لأن يغمضها بين الحين والآخر. مجرد عيب بسيط، لكنه يزيد من حدة ملامح وجهه، وبحكم طبيعته المنطوية، فلا أحد يستنكر هذه العين الصغيرة المرتعشة، حتى أنا، أبوه. لا يزعجنى هذا العيب الجسدي، لكن ما يحز في نفسي حقيقة، هو ذلك الخلل البسيط في عقله. سم خاطىء ما يجرى في دمه، عجز من نوع ما، قصور ما، ذلك القصور الذى أراه مكملاً لطبيعته التي أعرفها وحدي. ذلك القصور الذى يؤكد أنه ابني الحقيقي، فهذا العيب موجود في جميع أفراد أسرتنا، لكنه واضح بشكل ملفت في هذا الابن.

الابن الثالث، جميل هو كذلك، لكنه ليس ذلك النوع من الجمال الذي أحبه، انه جمال المطربين: الشفتان الممتلئتان، العينان الحالمتان، الرأس التى تحتاج الى ديكورخلفها حتى تعطي أثراً كافياً، الصدر المنتفخ بغير استواء، الأيدي المتشنجة، التي سرعان ما تفتر، الأرجل المدللة، العاجزة عن الحمل. بالاضافة الى أن صوته ليس بممتلىء، يخدع للحظة، فيجعلك تنصت اليه، ثم يخبو في اللحظة التالية. وبالرغم من أن تلك الصفات تغريني بأن أتفاخر به،الا أنني أتجنب ذلك، وهو لا يبدي أي اعتراض من ناحيته، ليس لادراكه نواقصه وعيوبه، بل لبراءته. فهو يشعر بأنه غريب في عصرنا هذا، كما لو أنه فرد من أفراد أسرتي،

وفي نفس الوقت يخص أسرة أخرى، فقدها الى الأبد. مهموم غالباً، ولاشيء قادر على أن يبهجه.

أما ابني الرابع، فهو اجتماعي جداً، ابن حقيقي لعصره، يتعامل بمرونة مع الجميع، يقف معهم على أرضية مشتركة، كل يحاول أن يتقرب اليه. وربما بسبب هذا الاتفاق العام، تكتسب طبيعته بعض الخفة، وتصير حركته أكثر حرية، وأحكامه سوية. كثيراً ما يرغب المرء في ترديد أقواله، بعضها على الأقل، فهو ككل يعاني من خفة زائدة. انه يدهشك، فهو أشبه بشخص يقفز برشاقة عصفور يشق الهواء، وما يلبث أن يسقط في تراب موحش، في العدم. مثل هذه الأفكار تقززني من رؤية هذا الابن.

الابن الخامس طيب ومحبوب، أقل كثيراً مما تتوقعت منه، وهو تافه لدرجة، أنك تشعر في حضرته أنك تقريباً وحدك، لكنه يتمتع بسمعة طيبة. واذا سألني أحد، كيف حدث ذلك، فسوف أعجز عن الاجابة بالتأكيد. فربما تنتشر البراءة في يسر وسهولة خلال صخب العناصر في هذا العالم، ولقد كان بريئاً، ربما بريئاً أكثر من اللازم. ودوداً مع الجميع، ربما ودوداً أكثر من اللازم. غير أنني لم أكن أحب أن يمتدحه شخص أمامي. رغم أنه على المرء أن يأخذ المديح ببساطة، عندما يكون الشخص يستحق المدح والثناء، مثل ابني.

أما ابني السادس، فيبدو من النظرة الأولى، أنه أكثر أبنائي عمقاً في التفكير. فاقد الأمل، ومع ذلك كثير الكلام. لذلك، ليس من السهل التعامل معه. عندما يصيبه سوء، يغرق في حزن لا حد له. يحافظ على وزنه الثقيل رغم كثرة الكلام. لكنه يتمتع بأريحية انكار الذات بشكل واضح. يعاني كثيراً من كثرة التفكير، طول النهار كما في الأحلام. صحته بشكل عام جيدة، لكنه أحياناً ما يصاب بدوار خفيف، خاصة مع اقتراب الغروب لكنه لا يحتاج لمساعدة، فهو عادة لا يسقط. ربما يرجع ذلك إلى تكوينه الجسدي، فهو كبير الحجم جداً بالنسبة لسنه، مما يجعله ليس جميلاً بشكل عام، رغم الجمال اللافت لبعض أعضاءه، كيديه وقدميه. كما أن جبهته أيضاً ليست جميلة، سواء في جلدها المتجعد أو في تكوين عظامها نفسه.

الابن السابع، يخصني أكثر من كل أبنائي الآخرين. العالم لا يقدره حق قدره، ولا يفهم طريقته الخاصة في المزاح. انني لا أبالغ في تقديري له، فأنا أعلم أنه ضعيف بما فيه الكفاية. لو أن خطأ العالم الوحيد، هو أنه لا يقدره حق قدره، لكان العالم بلا عيب. لا أود أن أفقد هذا الابن في عائلتي، رغم ما يثيره من قلق وازعاج، واحترام زائد للتقاليد، الذي يرى فيها كلا محكما غير قابل للجدل - هذا ما يترائى لي. بهذا الكل، لا يعرف هو نفسه كيف يبدأ، ويعجز أن يدفع عجلة المستقبل، رغم فطرته المتفائلة النشطة، تمنيت لو أنه أنجب أطفالاً كثيرين، وأنجب أطفاله أطفالاً أخر. لكنه يبدو للأسف، أن هذه الرغبة

لن تتحقق، فهو مكتف بذاته – أفهم ذلك، لكنه لا يعجبني. هذا الاكتفاء الذاتي يدين العالم بشدة، ويدفعه للتجول وحيداً، غير مهتم بالفتيات، ومع ذلك لا يفقد مرحه أبداً.

أما ابني الثامن فهو ابن الآلام، وأنا لا أعرف حقيقة سبباً لذلك. ينظر إلى نظرات غريبة، وأشعر تجاهه برباط أبوى متين. لقد أصلح الزمن كثيراً، أول الأمر، كانت تنتابنى رعشة كلما فكرت فيه. انه يذهب فى الطريق الذى اختاره لنفسه. أنهى كل ما يربط بينى وبينه. بارادته الصلبة وجسمه الرياضي النحيل سوف يحقق كل ما يريد. كانت ساقاه ضعيفتان وهو صبى، وربما قد تحسنتا مع مرور الوقت. كثيراً ما تتملكنى الرغبة فى أن أسترجعه ثانية، فى أن أسأله كيف حاله وكيف الحياة معه، ولماذا يبتعد هكذا عن أبيه، وماذا ينوى عمله حقاً – لكن العلاقة بيننا قد تطورت ووصلت الى هذا الشكل، كما أن كثيراً من الوقت قد مضى. فلتبق اذن العلاقة كما هي، وليبق الوضع على ما هو عليه. لقد سمعت، أنه الوحيد من أبنائى الذى يطلق لحيته. هذا ليس جميلاً بالنسبة لرجل صغير الحجم مثله.

ابنى التاسع شديد الوسامة، يفتن النساء بنظراته الساحرة، لدرجة أنه يفتننى أنا شخصياً، أنا الذي يعرف أن هذا اللمعان الخارق مجرد قشرة هشة تتكسر عند أول لمسة. والغريب عند هذا الابن، أنه لا يقصد قط اغراء النساء ولا يخطر له على با، فهو يكتفى كلية بأن يظل

طوال حياته راقداً على الكنبة، محدقاً محملقاً في سقف الحجرة، بل انه يفضل أن يغمض عينيه ويترك فى هدوء. وعندما يكون فى هذا الوضع الذى يفضله، يتكلم بحماس شديد و بشكل واضح ومركز، فى حدود ضيقة فقط، ما أن يتجاوزها - وهذا ما لا يمكن تجنبه - حتى يصير كلامه فارغاً أجوف. فى تلك اللحظة، يود المرء أن يشير اليه بالصمت، لو أنه لاحظ ذلك بعيونه المثقلة بالنعاس.

أما ابنى العاشر، فيمكن أن يقال عنه أنه شخصية غير مخلصة. لا أود أن أوافق باطلاق على هذا العيب. كما أنه لا يمكننى أن أؤكد ذلك. ولكن من يرى هيبته التى تفوق سنه بكثير، بملابسه الأنيقة، وقبعته السوداء القديمة، النظيفة للغاية، بذلك الوجه الصارم ذى الذقن البارزة، والجفون المنتفخة، ثم من يرى اصبعيه أمام فمه وهو يتكلم - يظن أنه أمام منافق كبير. والآن، فلتسمعه مرة وهو يتكلم! بفهم وترو وتحديد، مقاطعاً بأسئلة محرجة، وبتوافق مدهش مع العالم ككل، توافق يستلزم توتر الجسم وتصلب الرقبة. وقد اجتذب بطريقة حديثه تلك الكثيرين ممن يعتقدون أنهم أذكياء، رغم رفضهم لمظهره، بينما هناك آخرون لم يتوقفوا عند طريقة أداءه، ويؤكدون أنه منافق كبير. وأنا كأب، لا أريد أن أفصل فى الأمر، لكننى أعترف أن الفئة الأخيرة جديرة بالاحترام عن الفئة الأولى.

أما ابنى الحادى عشر، فهو رقيق للغاية. هو أضعف أبنائى جميعاً. لكن ضعفه هذا مضلل بالفعل، فأحيانا ما يكون قوياً محدداً، لكنه من المؤكد أن الضعف أساسي في تكوينه بشكل أو بآخر. انه ليس بذلك الضعف الذى نخجل منه، لكنه ذلك الضعف الذي نراه حولنا، مثل ذلك الضعف الذى ينتابنا قبل الطيران، حيث يغلب الاهتزاز وعدم الثبات وعدم التحديد. ضعف من هذا النوع أراه عند ابنى. هذا لا يسعد الأب بالطبع، فمثل هذه الصفات تعني تدهور العائلة وانقراضها. أحياناً ينظر إلي، وكأنه يقول: "سوف آخذك معي يا أبي" ساعتها أفكر: "أنت آخر من أثق فيه" فتبدو نظراته قائلة: "أطمع فى أن أكون الأخير على الأقل"

هؤلاء هم أبنائى الأحد عشر.

23

جريمة قتل أخوية

ثبت أن جريمة القتل تمت بالشكل التالي:

"شمار" -- القاتل -- كان يقف الساعة التاسعة مساء في ليلة مقمرة صافية، على ناصية الشارع منتظراً "فيزه" -- الضحية -- عند خروجه من الممر حيث مكتب عمله، وهو متجه لمنزله.

رغم هواء الليل البارد، كان شمار يرتدي قميصاً خفيفاً أزرق اللون، وكان سرواله مفتوح الزرائر. لم يكن يشعر بالبرودة، فقد كان في حركة مستمرة. كان سلاحه في الجريمة يتكون من سنجة وسكين مطبخ يمسكهما وهو في حالة استعداد، راقب لمعان السكين في ضوء القمر، فرأى أنها لم تكن حادة بشكل كاف، قام بسنها على حافة الرصيف الأسفلتية، فصدر عنها شرارات تناثرت في الجو، ثم رفع إحدى رجليه، وانحنى يمرر السكين عدة مرات على نعل حذاءه، كما لو أنه يعزف على الكمان، وهو ينصت تجاه الممر للأصوات القادمة التي ينتظرها قدرها.

لماذا على "بريفاته بالاس" أن يتحمل كلّ ذلك، وهو يراقب عن قرب من نافذته في الطابق الثاني؟ ربما طبيعة الإنسان في المعرفة و البحث عن الحقيقة! رافعاً ياقته، رابطاً سرواله حول جسده السمين، هازاً رأسه، يراقب بعناية كل ما يحدثٍ.

بعد خمسة منازل في مواجهة منزله، تقف "فراو فيزه"، واضعة فرو الثعلب على قميص نومها، في انتظار زوجها الذي تأخر اليوم كثيراً على غير العادة. أخيراً، يسمع صوت جرس باب مكتب فيزه وهو يغلق، عال أكثر من المألوف، يرن وسط سكون ليل المدينة واصلاً إلى السماء، يظهر فيزه عامل الوردية الليلية النشط، يمشي في الممر، لا يمكن رؤيته، لولا صوت جرس الباب، يخرج من المبنى، يمشي بخطوات متزنة يعرفها جيداً أسفلت الشارع انحني بالاس بشدة إلي الأمام حتى كاد يسقط من النافذة، كي لا يفوته المشهد، فهو يريد أن يشاهد كل ما يحدث. أغلقت فراو فيزه النافذة، بعد أن اطمئنت لسماعها جرس الباب. نزل شمار على ركبتيه، ضغط بيديه ووجهه على الحائط البارد، لم يكن أمامه في تلك اللحظة بديل آخر، فقد كان يلتهب من التوتر.

عند حدود تقاطع الممرين وقف فيزه مستنداً على عصاه. لحظة انتشاء أثارتها الليلة المقمرة، باختلاط ألوان سماءها الأزرق الغامق مع اللون الذهبي. كان يشاهدها دون أن يدري، ودون أن يدري مسح شعره بيده تحت القبعة، لم يكن هناك أي إشارة على ما سوف يأتي به

المستقبل المتعجّل، كان كل شيء في مكانه الغامض غير المعقول. منطقي جداً أن يتقدم فيزه، لكنه تقدم في اتجاه سكين شمار. "فيزه!" صرخ شمار وهو واقفاً على أطراف قدميه، راجعاً بذراعه للخلف، غارزاً السكين بعنف. "فيزه!" تنتظره جوليا دون جدوى! طعنه شمار في الرقبة على اليمين، ثم على اليسار، والثالثة عميقاً في البطن. صدر من فيزه صوت أشبه بصوت الفئران عندما تشق بطونها.

"انتهى" قالها شمار وألقى بالسكين الملوثة بالدم عند مدخل البيت المقابل. "نشوة القتل" راحة الضمير، التخفف، التحليق، الانسياب مع تدفق الدم الغريب وهو يسيل! فيزه، الشبح الليلي العجوز، الصديق، رفيق المقهى والبيرة، يتسرّب إلى قاع الممر المظلم. لماذا لم تكن ببساطة بالونة مليئة بالدم، لأمكنني عندئذ أن أجلس عليك وأفرقعك، فتختفي مرة واحدة. لن تتحقق كل الرغبات، لن تتفتح زهرات أحلامنا كلها، هنا ترقد بقاياك الثقيلة، التي لا يمكن لأحد الاقتراب منها. ماذا يعني ذلك السؤال الصامت الذي تطرحه علينا؟

بالاس، واقف على باب منزله، نادى بكل المرارة التي يشعر بها داخله.

"شمار! شمار! لقد شاهدت كل شيء، لم يفتني أي شيء" نظر كل منهما للآخر متفحّصاً. شعر بالاس بالارتياح، بينما شمار لم يصل إلي نتيجة.

اندفعت فراو فيزه بوجهها الذي أصابه العجز فجأة من الانزعاج، اندفعت تجري وحولها عدد غفير من البشر. انزلق الفرو من على جسدها المغطي بقميص النوم، الذي كان يضم الزوجين مثل النجيلة على القبر.

شمار، تحمل بكل صعوبة تلك اللحظات الصعبة الرديئة، ضغط بفمه على كتف الحارس، بينما كان يقوده بخطوات خفيفة.

24

حـــــــلم

رأى يوسف ك في المنام أنه:

كان اليوم جميلاً، ورغب يوسف ك أن يخرج للتنزه. ما أن خطى خطوات قليلة، حتى وجد نفسه وسط المقابر، وسط طرق رديئة ملتوية غير ممهّدة، لكنه كان يتنقل وسطها برشاقة وخفة، كما لو أنه ينزلق على مياه جارية. شاهد عن بعد قبرا حديث البناء، فجذبه هذا القبر بشكل خاص، مما جعله يسرع تجاهه ويتوقف أمامه. كان يمكنه أن يرى القبر بصعوبة، فقد كانت تحجبه رايات كثيرة ترفرف بشدة وتتلاطم مع بعضها البعض، دون أن يرى من يحملها، كما لو أنه كان هناك احتفال كبير.

نظر في البعد، فرأى على امتداد الطريق قبراً آخر يشبه ذلك القبر تماماً. قفز بسرعة على النجيلة التي تغطي جزءاً من الطريق، تزحلقت قدمه لعدم انتظامها فترنح وسقط على ركبتيه. خلف القبر يقف رجلان يرفعان سوياً إلى أعلى حجرا من أحجار القبور، ما أن رأيا يوسف ك حتى ألقيا بالحجر على الأرض، فوقف ك متحجراً في مكانه. فجأة من

خلف الشجيرات، ظهر رجل ثالث، رأى فيه ك مظهر فنان، فقد كان يرتدي بنطالاً و قميصاً مزرّراً بشكل مهمل، يضع على رأسه قلنسوة من القطيفة، ويمسك في يده بقلم رصاص، يخطط به أشكالا وهمية في الهواء وهو يقترب نحوهم.

جلس الرجل عالياً فوق الحجر وفي يده القلم الرصاص، كان الحجر مرتفعا بما فيه الكفاية، فلم يكن عليه أن ينحني، فقط عليه أن يحاذر، فقد كان الحجر يفصله عن قبر آخر. وقف على أطراف قدميه واستند بيده اليسرى على سطح الحجر. وبمهارة حرفية، تمكن من أن يكتب بالقلم العادي حروفاً مذهّبة، كتب: **هنا يرقد** كان كل حرف يبدو واضحاً بديعاً، محفوراً بعمق ومغطى بالذهب. وعندما انتهى من كتابة الكلمة الثانية، نظر الخطاط إلي ك، بينما كان ك يتابع باهتمام بالغ ما يكتب دون أن يهتم بالرجل، فلقد كان نظره مثبتا على الحجر. وبالفعل، أراد الرجل أن يتابع الكتابة، لكن شيء ما كان يعوقه بشكل أو بآخر، توقف عن الكتابة واستدار ناحية ك، نظر ك إلى الفنان ولاحظ أن الرجل في حرج شديد، وأنه لا يقوى أن يبوح بالسبب. هنا اختفت حيويته السابقة، مما تسبب في أن يقع ك هو الآخر في حيرة واضطراب -- نظر كل منهما للآخر بارتباك، هناك بالقطع سوء تفاهم سخيف، لا يمكن التغلب عليه. فجأة سمعت أصوات قرع جرس صغير من فرقة موسيقى القبور، فأشار الفنان بيديه، فتوقفت الموسيقى لفترة، بعدها ابتدأت ثانية، ولكن بصوت

خافت هذه المرة، ثم توقفت من تلقاء نفسها نهائياً، كما لو أنها كانت مجرد بروفة. كان ك في حالة من الأسف والحزن من أجل الفنان، وابتدأ في البكاء والنحيب مغطياً وجهه بيديه. انتظر الفنان إلى أن هدأ ك، وقرر أن يواصل الكتابة، فلم يكن هناك من مخرج. كان أول خط في الكلمة بالنسبة لـ ك خلاصاً حقيقياً، بينما كان الفنان يكتبه وهو ممتعض، لم يكن الخط جميلا، وكان ينقصه الذهب، كان باهتاً، مهزوزاً، غير واثق، وكبير الحجم جداً. **كان الحرف هو: ك**. وبمجرد أن انتهى من كتابته، ضرب الفنان القبر بقدمه وهو مغتاظ، فتناثر التراب في الجو من حوله. عندئذ، فهم ك موقف الرجل، لم يكن هناك وقت للاعتذار، حفر ك الأرض بأصابعه، لم تكن هناك أية صعوبة، كما لو أن كل شيء كان جاهزاً ومعداً من قبل، مجرد قشرة أرضية رقيقة، أزالها فانفتحت تحتها حفرة كبيرة ذات حيطان منحدرة، تقلب فيها ك على ظهره بنعومة، ثم سقط وغرق.

وبينما كان في الحفرة، رفع رأسه عالياً من القاع، وكتب اسمه على القبر بشكل زخرفي بديع.

عند هذه اللحظة استيقظ ك مندهشاً.

25

مقتطفقات من أعمال كافكا غير المنشورة (1916 – 1918)

--كان عليّ أن أهتم بذلك من قبل، كيف أتعامل مع هذه السلالم، وما هي علاقة الأشياء ببعضها البعض، وماذا على المرء أن يتوقع، وكيف عليّ أن أستقبلها. قلت لنفسي مبرراً، لم تسمع قط بهذه السلالم من قبل، ففي الصحف و الكتب ينتقدون باستمرار كل شيء، في كل مكان. لم تقرأ شيئاً عن هذه السلالم. قلت لنفسي، ربما لم أقرأ بدقة. فغالبا ما تكون مشتتاً، تترك مقاطع كاملة دون قراءة، وتكتفي بالعناوين، ربما كان هناك شيء ما عن السلالم، وأنت لم تلاحظه. والآن، تحتاج بشدة، ما لم تلاحظه من قبل. وقفت للحظة، وفكرت في صعوبة الموقف. أعتقد أنني تذكرت أنه من المحتمل، أنني قرأت ذات مرة في كتاب من كتب الأطفال عن سلالم تشبه هذه السلالم. لم يكن هناك الكثير لقراءته، مجرد ذكر عابر لوجود السلالم، الشيء الذي لم يكن له أية فائدة على الإطلاق بالنسبة لي.

عندما وقع الفأر الصغير-- الذي كان محبوبا بشكل خاص في عالم الفئران -- عندما وقع ذات ليلة في المصيدة، وصرخ صرخة عالية مضحياً بحياته من أجل قطعة دهن، انزعجت جميع فئران المنطقة في

جحورها وهي تهتز وترتعش، تنظر لبعضها البعض بعيون مرتبكة، بينما تحتك ذيولها بالأرض. توافدوا مترددين، يتعثر بعضهم ببعض ويصطدم كل بالآخر، في طريقهم لمكان الموت. هناك، حيث يرقد الفأر الصغير الجميل المحبوب من الجميع، وأسلاك المصيدة الحديدية منغرزة في رقبته، وساقه النحيلة الوردية مهروسة تماماً، بحلقوا في الجسد المنهك الضعيف، الذي لم يكن يرغب في غير أن يستمتع بقطعة صغيرة من الدهن. وعلى جانب المشهد، وقف الوالدان بعيداً وحدهما، يتأملان بقايا الطفل.

[...]

-- بعد تعيين الأمير الشاب في الحكومة الجديدة بمدة قصيرة، وقبل أن يكمل دراسته لأنظمة العفو، ذهب ليزور سجناً ما. في السجن -- كما يتوقع عادة -- سأل الأمير عن السجين الذي قضى أطول مدة في هذا السجن. كان رجلاً قتل زوجته، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، خلفه الآن اثنان وثلاثون عاماً قضاها في هذا السجن. رغب الأمير في أن يراه، اقتيد إلى الزنزانة، وعلى سبيل الاحتياط، قيدوا السجين يومها بالسلاسل.

عند عودتي للبيت في المساء، وجدت وسط غرفتي بيضة كبيرة الحجم، كبيرة الحجم جداً، تقترب في حجمها ببطنها المنتفخة إلى مستوى المنضدة. كانت تهتز بهدوء في مكانها. أثار ذلك فضولي، فأحضرت سكيناً، وأخذتها بين ساقيّ، وشققتها محاذرا إلي نصفين. ما أن شققتها، حتى

طقطقت القشرة وتساقطت متناثرة في أجزاء صغيرة، قفز منها برشاقة طائر صغير يشبه اللقلق، عريانا بلا ريش، يرفرف بجناحيه القصيرين في الهواء. وددت لو سألته: ماذا تريد في عالمنا هذا؟ انحنيت على الأرض لمستوى الطائر ونظرت في عينيه المذعورتين، لكنه تركني وابتعد قافزاً يتخبط تجاه الحائط وهو يمشي بصعوبة. قلت لنفسي "سيساعد كل منا الآخر جلست أمام المنضدة، وفضضت لفافة عشائي وأشرت الى الطائر، الذي كان يعبث بمنقاره فيما بين كتبي. قفز الطائر تجاهي، جلس على المقعد -- يبدو أنه قد ابتدأ يتعود تدريجياً على المكان -- وبنفس متقطع، بدأ في نقر شريحة السجق التي وضعتها أمامه، التقطها ثم أخرجها من فمه ورمى بها على الأرض. قلت لنفسي: "كان ذلك خطئاً، ليس طبيعياً أن يبدأ طائر بأكل السجق فور خروجه من البيضة مباشرة. هنا تكون النساء أكثر خبرة" اقترب مني، إنه من عائلة اللقالق وهذا يعني أنه يحب السمك. إنني مستعد أن أحضر له بعض السمك، لكن ليس بدون مقابل. فقدراتي المالية لا تمكنني من إعالة طائر معي في البيت. ولو أنني ضحيت وفعلت ذلك، لاحتجت منه في المقابل خدمة على نفس المستوى من الأهمية، تساعدني على الحياة. سوف أهتم بهذا اللقلق وأقدم له الأسماك حتى يكتمل نموه ويصير بالغاً، مقابل أن يأخذني معه إلى بلاد الجنوب. منذ زمن، تراودني الرغبة دائماً، في أن أذهب إلى بلاد الجنوب، لكنني لم أتمكن من ذلك، نتيجة نقص في أجنحة اللقالق. أحضرت في الحال الورق والحبر، غمست منقار اللقلق في الحبر دون أدنى مقاومة منه، وكتبت: "أنا الطائر من نوع اللقلق، أتعهد بأن ألزم نفسي -- حالة أن تطعمني وتغذيني

بالأسماك والضفادع والديدان (أضفت الصنفين الأخيرين لرخص سعرهما) حتى أصل لمرحلة البلوغ -- أتعهد بأن أحملك على ظهري وأطير بك إلى بلاد الجنوب" مسحت منقاره ونظفته، وضعت الورقة أمام عيني اللقلق، ثم طبقتها ووضعتها في حقيبتي. وهرولت في التوّ لشراء السمك، كان عليّ أن أدفع سعراً مرتفعاً هذه المرة، بعد أن وعدني بائع السمك، أنه سوف يحتفظ لي في الأيام القادمة بالأسماك التي على وشك الفساد، وبالكثير من الديدان رخيصة السعر. وهكذا تبدو أن الرحلة إلى الجنوب لن تكون مرتفعة التكاليف. كنت أشعر بالسعادة، وأنا أشاهد كيف يستمتع اللقلق بما أحضره له. كان يلتهم السمك بشراهة إلى أن تمتليء بطنه الوردية الصغيرة. يوما بعد يوم، كان الطائر يتقدم في نموه بشكل واضح. ومع أن رائحة السمك النتنة، التي لا تحتمل لم تبرح غرفتي، ولم يكن سهلا عليّ أن أقوم باستمرار بالبحث عن بزق اللقلق وكنسه، كما أن برد الشتاء ونار الفحم للتدفئة يحرمانني من تهوية الغرفة كما ينبغي -- يوما ما سيأتي الربيع وأسبح في الهواء العليل بالجنوب المشرق كما يحلو لي. نما جناحا اللقلق، وغطاهما الريش، واكتنزت العضلات، وحان الوقت لأن نبدأ التدريب على الطيران. لم يكن هناك أم للقلق لتساعده، ولم تكن تدريباتي كافية، فكان يعوض النقص في قدراتي كمدرب بتركيزه الشديد واهتمامه الزائد. ابتدأنا بالطيران الشراعي. صعدت، تبعني، قفزت بذراعين مفتوحتين مشدودتين، وهو يرفرف ورائي. وأخيراً ذهبنا إلى المائدة ثم إلى الدولاب، بينما كان الجناحان متسقين منتظمين، وكررنا ذلك مراراً.

فرانز كافكا (3 يوليو 1883 - 3 يونيو 1924)

كاتب تشيكي كتب بالألمانية، هو من أعظم كتاب الحركة التعبيرية ورائد الكتابة الكابوسية. لا يعد "فرانز كافكا" من العلامات البارزة في تاريخ الأدب الألماني فحسب، بل في تاريخ الإنسانية. فهو أحد أفضل أدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة.

تعلم كافكا الكيمياء، والحقوق، والأدب في جامعة "شارل" في براج. ولد لعائلة يهودية متحررة، شقيق لولدين وثلاث بنات. كانت الألمانية هي لغته الأم، كما تحدث أيضًا بالتشيكية والفرنسية. لم يكن يجيد اللغة العبرية رغم أنه كان يهوديًا. تعلم العبرية الحديثة على يد المدرس "موردريخاي لانجر". عمل موظفًا في شركة تأمين حتى تقاعده المبكر في عام 1922. أمضى وقت فراغه في الكتابة الأدبية التي رأى فيها هدف وجوهر حياته. نشرت القليل من كتاباته خلال حياته، لكن معظمها نشر بعد وفاته على يد صديقه المقرب "ماكس برود"، الذي لم يستجب لطلب "كافكا" بإبادة كل كتاباته.

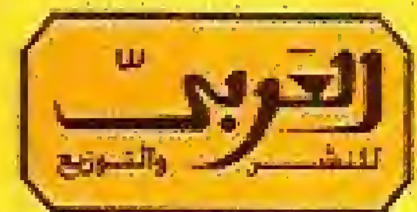
كانت حياته مليئة بالحزن والمعاناة، بما في ذلك علاقته بوالده. فـ"كافكا" كان مثقفًا مرهف الحس، وقع تحت حكم والد مستبد وقوي، وهو ما ترك تأثيرًا كبيرًا على طفولته، وظهر في رسالة طويلة كتبها بعنوان (رسالة إلى أبي). ظهرت آثار هذه العلاقة بصورة خاصة في رواية (المحاكمة) حيث تقبّل الشاب حكم الموت الذي أصدره عليه والده ومات غرقًا.

أصيب "كافكا" في عام 1917 بمرض السل، وقضى جزءًا من حياته متنقلًا بين المصحات العلاجية في التشيك وسلوفاكيا والنمسا وألمانيا، إلى أن توفي في النمسا عام 1924. ورغم وفاته المبكرة في سن الأربعين، إلا أنه استطاع بأدبه السوداوي وكتاباته عن سعي الإنسانية إلى الله والعدالة، أن يترك بصمة في الأدب الإنساني العالمي بالإضافة إلى معاناته التي ترجمها في كتاباته.

يأتي هذا الكتاب في إطار مشروع ترجمة الأعمال الكاملة لـ"كافكا". وقد بدأ هذا المشروع عام 2014 بمناسبة مرور تسعين عامًا على وفاته. تضم الأعمال إعادة ترجمة لأهم ما كتبه "كافكا"، وكذلك قصصًا تنشر لأول مرة باللغة العربية.

3





60 شارع القصر العيني 11451 - القاهرة
ت: 27954529 - 27921943 فاكس: 27947566
www.alarabipublishing.com.eg